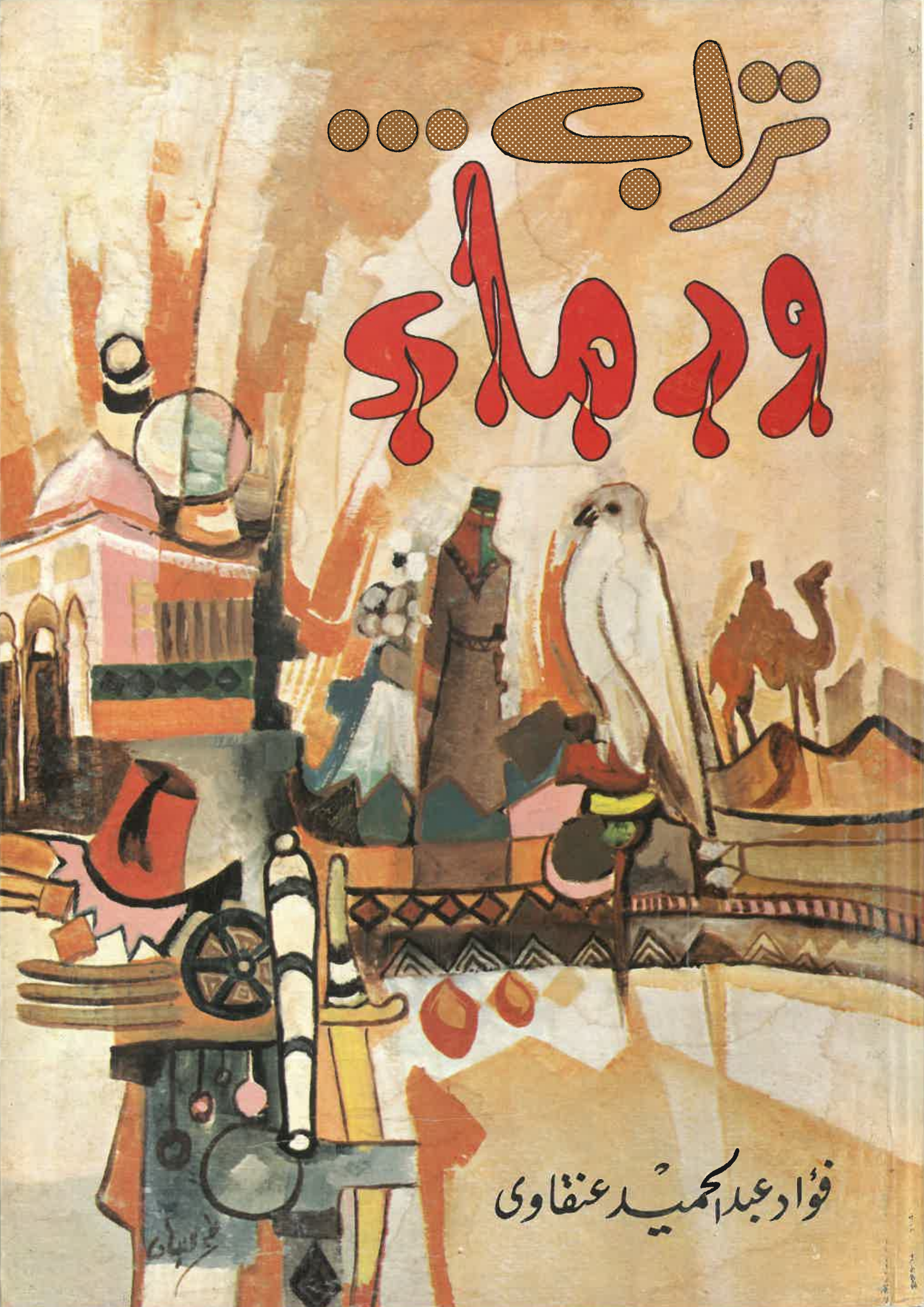


تراب ودماء

فؤاد عبدالحمید عنقاوی

فؤاد عبد الحميد عنقاوي

تراب و... دماء

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة على من لا نبي بعده

تراب... وماء

تراب .. ودمـــاء

رواية تاريخية

رسم الغلاف واللوحات الداخلية :

الفنان السعودي : طــه صبــان

الإهداء

إلى من هم :

هبة السماء ..

ونعمة الأرض ..

والذكر الحسن ..

مقدمة

بقلم : الأستاذ محمد حسين زيدان

النثر . . . فكر تتحرك به المشاعر لتعرب عنه . . .

والشعر . . . مشاعر يحرك الفكر لتعرب به . . .

وجاءت القصة فكراً يُحرك المشاعر لأنها نثر ، ومشاعر يتحرك بها الفكر لأنها شعر حين تعبر عن أحداث لبست الاحساس .

فالقصة أو الرواية تطور جديد في اللغة العربية باعتبارهما فكر النثر وشعر الفكر .

وهذه الرواية التي أشارك مؤلفها في تقديمها للقارىء ليست إلا تعبيراً عن واقع . . . إن عاشه المؤلف بالسماع ـ لصغر سنه ـ فقد عشته مشاهداً ومنفعلاً به .

ومن الغريب أن الوارثين لما عاشه الآباء من كرب تحت ضغط المتناقضات وتحت العسف يصبحون أكثر فهماً لهذا الواقع وأشد تأثراً به . . . لأن الألم الذي أحسست به ـ بذلك الكرب وما إليه ـ لا أستطيع تجسيده أو حتى الاعراب عنه بقدر الوارثين لنا حين يسمعون شكوانا ، وحين يعرفون بلوانا . . .

إن بطل الرواية قد عاش في حقبة من الزمن في الجزيرة العربية ، ـ وفي هذا البلد بالذات ـ يوم كان الفصام بين الحاكم والمحكوم . . . الحاكم في قصره وهو ليس واحداً . . . بل على القمة في هذا البلد حاكمان . . . التركي صاحب السلطان ، والعربي الذريعة لتمكين السلطان . . وإن تمتع باليد التي ينال بها من الشعب ما يريد لينال السلطان المفروض عليه كلما أراد ، وفي الوقت نفسه أصبح هناك الرديف للفصام بين الحاكم والمحكوم . . . ألا وهو الخصام إلى حد القطيعة والتنافر بين الحاضرة والبادية . . .

المدينة تحاط بأسوار وقاية من ابن الأرض ، وابن الأرض قد توزع أوزاعاً ، كل قبيل ليس بينه وبين القبيل الآخر إلا الانتساب إلى لقب أو الاكتساب بهذا اللقب ، أو ببعض المزايا التي منحها السلطان الغريب لبعض هؤلاء . . فإذا بتلك المزايا تشعل الخصومة بين المدينة والبادية .

من هنا كان كاتب الرواية ـ السيد فؤاد عنقاوي ـ قد جسَّد له آباؤه من كبار الأسنان هذا الواقع ، فإذا هو يشعر به . . يكتبه . . ومن هنا أيضاً أعدُّ هذه الرواية تاريخاً للبلد كله ، وإن كانت قد عبرت عن مشاعر البطل وكروبه . . فإنها ليست كروب الواحد بطلاً ، وإنما هي كروب ذلك الواقع . . .

فالبطل الذي امتلأ وجدانه بكلِ ذلك يعيش الغضب من حياة الغربة التي توطنت في المواطن الذي أقضه الواقع ، وحين ضاقت المدينة بالبطل اشتعلت في وجدانه عاطفة الأمومة يفتش عن الخال كأنما الأبوة التركية كانت من دوافع غضبه ـ لا كرهاً في والده ـ وإنما هو الإحساس بالظلم من هؤلاء الذين تسلطنوا عليه ، فعاطفة الأمومة هربت به إلى خارج المدينة ، فلا يجد إلا القبيل الذي يحميه . . .

لم يكونوا من أخواله ذوي القربى ، وإنما هم أخواله باعتباره المحتمي بهم . . فزاده ذلك اعتزازاً بغضبه . . . حين فاته الملجأ في المدينة وجد الملجأ في رجال لم يعرفوه أولاً . . . فكانت عاطفة التقدير أكثر منها لو أنهم عرفوه . . . لأن الحماية له كانت للجوار ولم تكن بداعي القرابة ، فإذا هو يرى نفسه على صواب في كل ما غضب له ، ومن غضب منه ، وما انفعل به .

لعلي قد لخصت احداث الرواية في هذه الأسطر . . لا أكيل ثناءاً على المؤلف ـ وإن كان يستأهله ـ وإنما قد كلت للقارىء أن يعرف بعض البلاء الذي عشناه في الفصام بين الحاكم والمدينة . . بين السلطان والسلطان . . . والخصام بين المدينة وما حولها ومن حولها . . .

وما حولها ماذا تعني ؟؟؟ . . .

تعني أن ابن الحاضرة لا يعرف ما هو خارج الأسوار ، كأنما قد حرم نفسه أو هم حرموه أن يعرف أرضه وساكنها . . .

ولعلي مرة أخرى لا أعجب في هذه المقدمة الذين لا يعجبهم العجب . . . ولا الصيام في رجب .

محمد حسين زيدان

مَدْخَل

الحقبة التي استهل بها القرن العشرون الميلادي أعوامه . . . كانت فترة زمنية مضطربة اجتاحت العالم الغربي الذي كان يرزخ تحت سيطرة الكنيسة والإقطاع ، وما نتج عنهما من حوادث اجتماعية ، واضطرابات سياسية . . ثم ما تبعها من دسائس ومؤامرات وفتن وحروب . . الخ . .

كما انتشرت في كافة أنحاء المعمورة الحركات الوطنية التي تَنْبعُ وتترعرع في مناخ الدول المستضعفة ضد الدول العظمى والاستعمار .

ولقد كانت البلاد العربية تحت حكم الامبراطورية العثمانية طوال قرون . . . إبان عزها وسلطانها ، وأيام ضعفها وتفتتها . . .

إلى أن تعاقب على الحكم ولاة كان منهم من يدين في الظاهر بالولاء والطاعة للأعتاب العالية في الآستانة ، إلا أن أهدافهم ومراميهم كانت بعيدة . . كما أن أحلامهم كانت عريضة .

وقد قامت ـ في جميع أنحاء الوطن العربي صيحات تنادي بالاستقلال وطرد الحاكم الأجنبي ، وتدعو إلى القومية والوحدة والحكم الذاتي . . . إلا أن قبضة السلطة كانت تترصد كل حركة ، والعيون تتصيد كل مناضل أو مكافح . . .

فنُصبتْ المشانق ، وامتلأت غياهب السجون ، وتهدمت بيوت ، وتثكلت أرامل ، وشردت عوائل . . .

غير أن الحماسة أخذت تسري سراً من بيت إلى بيت ، ومن زقاق إلى زقاق . . . وما لبث أن توسعت قاعدتها ، فانتقل التنظيم السري من مدينة إلى أخرى . . .

وكان أن أعلنت الثورة القومية العربية على الأتراك في ٩ شعبان ١٣٣٤هـ الموافق ٢ يونيه ١٩١٦م - أي بعد سنتين من قيام الحرب العالمية الأولى .

لسنا هنا نؤرخ ، أو نستدرج أحداثاً تاريخية بقدر ما نريد أن نلقي ضوءاً خفيفاً يُسَلَّط على مجرى حوادث هذه الرواية فينير جوانبها ويكشف من بعيد أو قريب خطّ سيرها . . .

وأنا هنا أريد أن أوضح . . إنه ليس لهذه الرواية أي صلة بالتاريخ ومجرياته ، أو بالسياسة وخباياها ، كما أنه ليس لها علاقة بالحكام أو الولاة وسيرتهم ، أو ما قاموا به من إصلاح ، أو حوادث جَرُّوا فيها البلاد إلى مواقف عصيبة . .

إنها تصوير لمشاعر شاب ولد في بيئة متناقضة من أب ينتمي في أصله إلى الدم التركي . . سلالة الثراء والجاه ، والعز والسلطان . . . ومن أم عربية في أصلها وفصلها ، عربية في تربيتها ونشأتها . . . فينعكس الصراع الذي كان قائماً في تلك الحقبة من الزمن ، والمتناقضات التي كانت سائدة تملأ النفوس وتهز الأحاسيس . . . تنعكس على نفسه . . . فينشأ صراع داخله . . . يؤرقه . . . يزلزل كيانه . . . فيقف حائراً .

إلى من ينتمي ؟؟؟

أين يجد نفسه ؟؟؟

إلى الجاه والثراء ، والعز والسلطان . . ؟؟؟

أم إلى التراب والتراث والشهامة والمروءة ، والبسالة والبطولة ؟؟؟

هنا تكمن عقدة القصة !!!

وهنا يبرز الصراع الحقيقي . . والتحليل النفسي . . والذاتي . . .

إذن . . كان لا بد أن نلقي بعضاً من الضوء الخافت على الأحداث التاريخية والسياسية التي صاحبت وصقلت شخصية البطل ، وكان لها أثر كبير في بناء قاعدته الفكرية ، وركيزته النّضَالية .

ولعل من المستحسن أن نذكر . . أن كل المسميات التي وردت سواء كانت شخصيات أو أمـاكن هي من وضع المؤلف ، وليس لها خلفية ثابتة في الواقع أو التاريخ .

فؤاد عنقاوي

أبطال الرواية

طاهر أفندي الأبيض	الأب
هند هانم	الأم
نديم	الإبن
وجدان	البنت
عصمت هانم	الجدة
فارس	ابن الصحراء
سلمى	فتاة البادية
راجح	فتى البادية
مفرح بن مطلق بن جمعان	شيخ قبيلة ساهدة
طارش بن شبيب	شيخ قبيلة أم الرمان
ذبيان وسارح	قاطعا طريق
زيد بن مصلح بن سند	خال نديم من قبيلة الصفا
شداد ونمر	محاربان من قبيلة ساهدة
جابر بن ضاحي	رئيس الجمعية الوطنية
مقصود أوغلو	الخادم القتيل

جودت سري — الخادم الشاهد
مراد أفندي — ضابط البوليس
رستم آغا — بكباشي وقائد السرية
حكمت باشا — رئيس المحكمة العسكرية العليا
مدحت بك — المستشار السياسي القضائي
مراد احمد اوغلو — الحاكم العسكري

١

أخذت العربة ـ يجرها حصانان أبيضان ـ تتهادى يمنة ويسرة وهي تتموج على الممر الطويل الذي انعطف إلى الناحية الشرقية من القصر المنيف . . . والأشجار الباسقة تقف حارسة على الجانبين . . . ومن خلفها انتثرت أشجار الفاكهة . . . كما طوقت أشجار النخيل مبنى القصر من كل جانب ، وبدا وكأنه نقطة بيضاء في صحن زمردي . . . وداعب النسيم أوراق الشجر . . فسُمع لها حفيف خفيف كأنغام الموسيقى . . . وانتعش الورد النائم فندت منه رائحة سخية اختلطت بشذى الياسمين المستترة خلفه . . . وأوقف الخوذي العربة بايحاءة من سيده ، ونزل الشاب منها وترجل ماشياً ، وعيناه مركزتان على وردة حمراء يانعة . . . فوقف أمامها في إجلال ، وقرب منها وكأنه يهمس في أذنها أعذب الألحان . . . وبرفق وحنان وضعها بين يديه ، ومال برأسه عليها يستنشق شذاها ويستعذب عطرها . . . وواصل سيره بين الخمائل ، ومر تحت عريشة العنب . . وخيوط الشمس تتسلل بين الأغصان . . . وتسلقت ساقاه درجات الرخام المرمري في حركات بطيئة ، وعيناه تائهتان في بحر لجي من الأفكار . . . وعندما ولج من الباب الرئيسي غاصت قدماه في السجاد الثمين يفرش

صالات القصر ، وتوسطت سقف الصالون الكبير ثريا ضخمة جميلة ، ووزعت (المناضد) المرمرية بين كراسي الجلوس في تنسيق بَديع يدل على ذوق رفيع . . .

ووقف الخادم بين يدي سيده في أدب واحترام :

ـ افندم . . . مولانا بيك . .

ـ كوب ماء بارد . . .

ـ حاضر . . . أفندم .

* * *

وارتمى نديم على أقرب كرسي شارد الفكر . . . وقد أحس بتعب وإرهاق إثر المجهود الكبير الذي بذله في ترويض الحصان الجديد . . . وشعر بآلام خفيفة في كتفه الأيسر . . . وما لبث أن فكر في أخذ حمام حار . . . وقبل أن يهم بالنهوض سمع وقع أقدام منتظمة وكأنها تسير وفق خطوات رقص ـ مرسومة ـ . . وفي ثوان . . أحس بيد ناعمة تشد شعره من الخلف في رفق وحنان وصوت أخته العذب ينساب رقة ودلالا . . .

ـ ما لي أراك متعباً . . . (وبنبرة مضغوطة) . . . لقد أخذ منك الإعياء بهجتك . . . وسلب منك إرادتك . . .

ـ . . . (صمت) . . مرسلاً إليها نظرة باردة !!!

ـ اتريدني أن أقرأ ما يجول بخاطرك ؟ أتريدني أن أخمن كالعادة سبب اكتئابك ؟ . . . (لحظة صمت قصيرة) . . . إذن علينا أن نعيد ما قلناه ، وأن نكرر القصة مرات ومرات . . .

ـ كفى يا وجدان . . كفى . . . إني تعب . . . وأشعر باكتئاب شديد !!!

ـ ومنذ متى لا يصيبك ذلك الاكتئاب ... ها ... قل لي .. أخبرني بالله عليك أنك تشعر بارتياح ـ ولو مرة واحدة ـ أو أنك تقضي وقتاً ممتعاً ؟ ... لماذا أنت هكذا يا نديم؟ لماذا تحمل هموم الآخريـــن معك ؟ .. لماذا لا تعطي نفسك حقها ؟ ... لماذا لا تستمتع كما يستمتع جميع من في هذا البيت بالنعمة التي أنعمها الله علينا ... والنعيم الذي ...

ـ وجدان ... (في صوت حاد ...) أرجوك أن تتـوقفي عن هذا الكلام ... لقد سمعته منك ومن أمي وأبـي مـرات كثيرة ... ليست المسألة عناداً كما تتصورون ... الإنسان لا يحس إلا بما يفتعل في قرارة نفسه ، ولا يمكن أن يعكس صورة مزيفة على وجهه ليرضي الآخـرين .. أنا أقدر لكم ـ ولك انت اختي القـريبة من نفسي ـ اهتمامكم بي وقلقكم علي ... ولكني في الـواقع لا أجـد لذلـك سبباً ، ولا أرى ضرورة أن تقضوا وقتكم موزعين فيه الخاطر والفؤاد على ما أعيشه من تيارات نفسية وصراع داخلي ... (وجذب نفساً طويلاً ... وأرسـل ناظـريه إلى الفضـاء ..) ليس النعيم الذي تتحدثين عنه دوماً هو الهدف الأخير في الحياة ... ربما يكون هدفاً أولياً ... ولكن:هل نظرت إلى ما وراء الأفق ؟ إلى المستقبل الغامض الذي ينتظر كل واحد منا ؟ هل فكرت في العالم الفسيح والصراع المرير الذي يعيشه الفقير ويعاني منه ؟ هل فكرت في هذا البلد الذي نعيش فيـه .. والأرض التي نأكـل من نبتها ... والهـواء الـذي نستنشقه ... والوطن الذي يضمنا أحياء وأمواتاً وهو يرزخ تحت نيران العبودية والاحتلال ؟؟

ـ ما شاء الله ... ما شاء الله ... من يسمعك تتحدث بهذا الحماس

وذلك الاندفاع والقوة يقول إنك المصلح في هذه الدنيا . . . وإنك وحدك الذي سيغير مجرى التاريخ . . فيسعد الفقير . . . ويدخل السرور على قلب البائس . . .

ـ اتمنى ان يأتي اليوم الذي استطيع أن أحقق فيه ذلك .

وجاء صوت السيدة هند هانم من الخلف قوياً ناعماً . . .

ـ هل عدتما ـ كالعادة ـ إلى الحوار الذي سوف لا ينتهي إلا بالصياح ؟؟!!

ـ إنه هو يا أمي . . . هو نديم ـ ولدك ـ الذي لا يتغير . . . لقد ازدادت فلسفته . . . وتعمقت أفكاره . . . وهَرُمَ في أوج شبابه . . . انظري يا أماه إلى شكله وهو يتكلم . . . عيناه زائغتان ، ولا يكاد يحس بوجود الآخرين . . .

تسمعين منه ألفاظاً غريبة علينا . . جديدة على مسامعنا . . .

ـ ولكنها يا أماه قريبة إلى مفاهيمنا . . . نابعة من أحاسيسنا . . . . . ، الحقيقة دوماً تبدو صعبة يا وجدان . . . وشتان بين حقيقة ظاهرة ملموسة يحس بها الإنسان يعيش تجاربها ولكنه يحاول إخفاءها . . . . وبين جبل من خيال . . من وهم . . . يعيشه الواحد منا ليرضي نفسه ، ويرضي شهواته ، ويشبع نهمه . . . وهو يعلم أنه وهم زائل ، وخيال زائف . . .

ـ يبدو أنك تعب مرهق . . . اصعد يا بني إلى غرفتك ، ونل قسطاً من الراحة . . . فموعد رجوع أبيك من عمله سيحين قريباً . .

واستدارت الأم إلى المطبخ الكبير تجهز الغذاء . . . ومن خلفها مشت الخادمة . . . واتجهت وجدان إلى ركنها المفضل حيث اخذت تعزف على البيانو . . . .

٢

أحس نديم بدفء الماء وهو يتصبب على جسمه الفاره، ومشت يده تدلك عضلات صدره ، وكتفيه بالصابون . . . ووقف مشدوداً أمام مرآة الحمّام ينشف قطرات الماء التي اندست بين شعره الذهبي ويفرك رأسه وكأنه يريد أن يوقف سيل الأفكار التي احتشدت داخله ، وأخذت دقات قلبه تزداد كلما توغل في فكرة من أفكاره المتضاربة . . . ومشى ببطء إلى الكرسي الذي تعود الجلوس عليه . . . عقله شارد ، وبصره زائغ . . . بينما أخذ كل فرد من الأسرة مكانه المخصص له . . . وقبل أن يجلس القى تحية الظهيرة والمساء . . . والتقط يد أبيه يلثمها في احترام وأدب ـ كما تعود من صغره ـ وطبع على جبين امه قبلة عريضة . . . وغمز اخته بطرف عينه اليسرى . . . وكأنه يقول لها : « ما أحلاك . . وما أجمل شعرك الأسود المهفهف الذي يغطي رأساً خلت من الأفكار . . . » . . . وبدا رب الأسرة مبتهجاً . . . وكست ملامحه السعادة والرضى . . . وتكلم ببطء شديد وبصوت هامس . . يسأل نديم عن يومه وكيف قضاه . . . ووجدان عن تحركاتها ونشاطها . . . . ثم تطرق إلى أعماله التجارية . . .

ـ إن السوق هذه الأيام كاسد ، والتجارة راكدة . . . وحركة البيع

والشراء جامدة . . . والتجار ما فتئوا يتذمرون . . ولا أحد يعرف كيف ستكون الحالة ، والأوضاع مضطربة . . .

ـ ولماذا لا تريح نفسك بعض الشيء وتخلد إلى الراحة التامة يا أفندي ؟ (قالت الأم بصوتها الناعم في استحياء . . .)

ـ كيف تريدين لشلال الماء ان ينقطع ؟؟ وكيف تستطيعين أن توقفي موج البحر الهائج ؟ إن أبي لا يمكن أن يريح نفسه يوماً واحداً . . . إنه لا يقدر أن يبعد عن عمله ساعة . . . إنه الرجل الذي لا يكبر أبداً . . . إنه شعلة نشاط ، وحركة دؤوب . . . أليس كذلك يا أبي ؟؟؟!!!

ـ (نظر الأب إلى وجدان نظرة مليئة بالعطف والحب . . .) وتبسم قائلاً . . كلامك صحيح يا ابنتي !!! إنني احب عملي وأخلص له . . . ومتى ما أحب الإنسان عمله أعطاه حياته وكل عمره . . .

ـ ولكن . . (قاطع نديم أباه) مرسلاً نظره إلى أعلى وكأن يستلهم ما يقول . . .) أنت تجهد نفسك كثيراً يا أبي . . . والحمد لله . . . لقد أنعم عليك رب العباد بالمال والجاه والسمعة الطيبة . . . ومن حق جسمك عليك أن تريحه . . . كما أن من حق أسرتك أن يجتمعوا بك دوماً ، وأن يتمتعوا ويستمتعوا بحديثك العذب ونصائحك الرشيدة ، وأن تشملهم بحنانك وعطفك . . . ويكون لنا جزء من وقت نتبادل فيه ـ أنت وأنا ـ الرأي ، ونناقش مواضيع معلقة ، ونفتح بذلك أبواباً كنت تغلقها في وجهي دوماً . . .

* * *

وفجأة . . صدرت من الأب آهة سقطت في قلب الأم

كالجمرة . . . ودقت في مسامع الإبن ناقوس خـطر . . . واخترقت أذن وجدان الموسيقية كصوت نشاز . . . ووضع الأب يده على قلبه المريض وكأنه يعصـره أو يرجـوه أن يُخَفِّف عنه الألم . . . ولم تـطق الأم صبراً ، فهرعت إلى المطبخ وصرفت الخدم وأجهشت بالبكاء ، ثم دلفت إلى غرفة الضيوف تختلي بنفسهـا . . وجسدهـا يرتعش ، وقلبهـا يخفق ، ولسانها يردد . . . « رب احفظ « طاهر » وارزقه العافية ، واشف مرضه ، وامنحه القوة . . . اللهم . . . لا تُيتم أولادي . . . ولا تحرمني وجوده . . . ولا تكسر قلبي . . . فليس لي بعده عوضاً ولا سنداً . . . وليس لي غيره رجلاً ولا ملجأ . . . » وقبل أن تجفف دمعها وتسترد أنفاسها ترددت في حلقها هذه الكلمات « . . . ما أقسى الحـرمان . . ومـا أشد مـرارته ، لكم ذقت الوحدة . . وعشت في دياجيرها . . . » .

٣

طـاهر أفنـدي الأبيض . . . ابن الجاه والثـراء ، سليـل العزّ والمجد . . . ورث عن أبيه عبد القوي بيك الأبيض ثروة طائلة ، وعادات وتقاليد . . . وذاك توارثها عن جدته لأمه ـ عصمت هانم ـ حفيدة الوالي التركي . .

طاهر أفندي في العقد السادس من العمر . . رجـل طيب ، وُلد ونشأ في ضاحية من ضواحي استامبول ، وترعرع في بيئـة صالحـة وجو ديني ، حفظ القرآن ، وتتلمذ على مشائخ زمنه ، وتفقّه في الدين .

قدم إلى الجزيرة العربية مع قريبه الوالي . . . ساعده ثراؤه وحبه للخير من جهة ، واستقامته ونزاهته من أخرى ، على مخالطة أعيان البلدة ووجهائها . . .

وبمرور الأيام رسخت قدماه في التجارة ، وبوّأته مكاناً مرموقاً حتى أُطلق عليه ـ شاهبندر ـ التجار .

تميز بالأمانة والصدق والعمل الدؤوب ، قوي البنيـة ، لا يعرف الكلل إلى نفسه سبيلاً . . . . فنمت تجارته ، وتوسعت ثروته ، وأصبح يملك أراضٍ شاسعة زراعية وقصوراً . .

كما ورث عن جدته التركية جمال الصورة ، وبياض البشرة ، وتسللت إلى دمائه الطباع والسلوك التي كانت سائدة في العهد التركي ، ففرض النظام في البيت ، وألزم الخدم والحشم بالطاعة وحفظ الألقاب .

* * *

كان زواجه من هند ابنة مصلح بن سند ـ أحد تجار البدو المتنقلين بين القبائل ـ قضاءاً وقدراً . . . كانت الصلة قد توثقت بين الاثنين ، فتح طاهر خزائنه له وأمده بالمال والمؤ ن إيماناً بنزاهته وتوسماً لصلاح فيه ، وكان مصلح يُكبر طاهر كإنسان على خلق رفيع ، ويعجب به كتاجر ناجح ورجل مرموق . . . فأنس به وأحبه لشخصه واستقامته ونجاحه .

ورغم معارضة أسرة مصلح وعشيرته وقبيلته العربية وتهديده بالجفوة والقطيعة . . . إلا أنه كان يؤ منُ بأنه انما يزوّج ابنته لرجل شهم نبيل . لم ير طاهر زوجته ولم تتعرف هى عليه طبقاً لعادات البدو الجارية . . الا انه سرعان ما تألفت القلوب واتحدت المؤشرات ، رأى فيها الزوجة . . . المنشودة على قدر كبيرمن جمال الْخلق والخُلُق . . ومما زاد في اعجابه بها استعدادها الطيب للتكيف بما يحب ويرغب . . .

وجدت هند هانم في زوجها الرجل المكتمل حيوية ونشاطاً . . . الوقور . . . السمح . . . الذي يلبي طلباتها ويسعى إلى كسب رضائها . . . فتطبعت بطباعه ، وتفهمت عاداته ، ورضيت بتقاليده . . . فقويت الألفة بينهما ، ونما الحب الذي رفرف على القصر المنيف الذي انتقلت اليه . . .

كان الفارق في الطباع والعادات العربية التي نشأت عليها ـ والتربية التركية ـــ التي صدمتها في أوائل حياتهما كبيراً ، بل وأكبر مما تتحمله أية

امرأة أخرى مكانها ... ولكن نبتها الحسن ، وأصالتها ، وسلوكها ، وتربيتها . . كل ذلك جعل منها امرأة ترضى بالواقع وتبعد عن الخيال الذي يلف عقل كل فتاة في سنها .

* * *

كان العصر الذي تفتحت فيه عيناها على الحياة خليطاً بين الحضارة المستوردة والطباع الموروثة . . . . بين المدنيّة المصطنعة والفطرة العربية . . . نشأت في صحراء البادية حيث كانت ترعى الغنم وتحطب الحطب جنباً إلى جنب مع فتيان القبيلة . . . حياتها كانت هادئة كجدول رقراق . . . بسيطة بدائية لا زيف فيها ولا تعقيد ، لا تكلف ولا رياء . . . لذا فقد كان الامتحان عسيراً ، والعبور شاقاً ، والطريق طويلاً . . . وكان مطلوب منها أن تتحول تحولاً جذرياً ، وأن تتغير تغيّراً كلياً من البداوة إلى الحضارة ، ومن خشونة الطبع إلى لينه ، ومن شظف العيش إلى رفاهيته . . . . وفوق هذا . . كان عليها أن تتقبل الحياة الجديدة مع رجل نشأوتربى وعاش في عالم يختلف عن عالمها ، وواقع لا تمت إليه بصلة ، وأن تتأقلم مع ذلك التيار الغريب عنها أصلاً وفرعاً . . .

نظرت . . . فأبصرت الفرق الكبير بين بيئتها المشبعة بالحريّة والتعبير عن الرأي والذات . . . . وبين ذلك الجو المليء بالدكتاتورية المطلقة والتحكم المتسلط .

كما رأت البون شاسعاً بين أهلها وعشيرتها وذلك الحاكم الآمر الناهي . . . غير أنها ولجت الحياة الجديدة من أوسع أبوابها . . فأحبت فيه شخصيته القوية ، وشغفت به ، وتعلقت بقلبه النقي ، واستعبدها عقله الذكيّ ، واستسلمت له عندما كان يصفو لها ساعات من ليل أو لحظات

من نهار . . . . وكانت هذه غاية مناها وصفات فارس أحلامها الذي تخيلته منذ أن دغدغت حواسها الانوثة ، وملأت حواسها الرجولة التي تخيلتها إشباعاً لغريزتها الفطرية . . . .

واستطاع هو من جانبه أن يذيب جدار الجليد الذي وقف حائلاً بينها في بداية حياتها الزوجية ، وأن يتغلغل إلى نفسها وأن يقتحم حياتها ويملأها حباً وحيويّة وإثارة . . . فقد عرف بحكم تجاربه الواسعة إبان صدر شبابه ـــ الذي عاش ردحاً منه في استامبول ـــ كيف يعامل المرأة ويرضيها ويستحوذ على لبها ... واستطاع أن يوفر لها حياة كريمة مريحة متوجة بالهدايا والذهب والأحجار الكريمة التي ملأ بها كفيها ، وأغرقها في حب دافىء ، وشعور فياض ...

* * *

وما ان انتهت السنة الأولى من الزواج . . . حتى أحست يدبيب حياة يسري في أحشائها . . . فامتلأت غبطة ، وابتسمت في دلال عندما زفت ذلك الخبر السعيد إلى زوجها . . . فتفرس في وجهها ، ونظر إلى بطنها وقال في نبرة قوية ولهجة جادة : « . . . أريده أن يكون صبياً . . جميل الصورة ، قوي البنية . . . حتى استطيع ان أنشئه تنشئة تليق بالأسرة وتفخر به جدته . . . فأنا الوحيد بين أسرتي الذي ظل يحمل لقب العائلة . . . وأريد أن يرث ابني ذلك الفخر . . . » .

عندما ارادت هند ان تفتح فمها وأن تتكلم . . . رمقها بنظرة صارمة وعيناه تقول . . . « ولد . . . . صبي . . . اتفهمين ؟؟!!! » .

وأطرقت المسكينة حزناً ، واسبلت عيناها ، واخذت تدعو بحرارة وتوسل أن يرزقها الله ولداً . . . فهي قد خبرته عنيداً ، لا يقبل تفاهما ولا

يخضع لرأي يخالفه حتى ولو كان الأمر خارجاً عن قدراتها . . . خاضعاً لإرادة الخالق جل وعلا . . . ولكنها لحرصها على إرضائه . . . وأملاً في تحقيق رغبته تظاهرت بالرضا وتجلدت بالصبر ، وأخذت تتوجه إلى السماء بقلب مترع بالإيمان ، وعين دامعة ، أن يرزقها الله ذلك الصبي . . . فلطالما أفرغ في أذنيها كلمات منمقة مرتبة عن آماله وأمانيه عندما يرزقه الله ولداً ، حتى لقد أعد له اسماً وبرنامجاً وطريقة معينة في التربية ونهجاً فريداً في السلوك . . .

وباتت ليلتها ، وأعقبتها الليالي الطوال . . . وجلة قلقة ترقب مولودها ، ولسانها لا يفتأ يردد ذلك الدعاء الذي ينطلق به لسانها صباح مساء . . « ولد . . . اللهم ولدا ... » .



٤

أُولمت الـولائم . . . ودُقّت الطبـول . . وذُبحت العقـائق سبعـة أيام . . . وابتهج كل من في القصر من خدم وحشم ابتهاجاً بالمناسبتين السعيدتين . . إطلالة ذلك الصبي السعيد المـرتقب . . وحضور جـدة الحفيد خصيصاً من استامبول لتبارك ذلك المولود . . .

وحمل طاهر افندي ابنه بين يديه في رفق وحنان ، وضمه إلى صدره وطبع على جبينه قبلة أبوية حارة وهو يناوله جدته هامساً . . « هذا حفيدك وسليل الأسرة ووارثها . . . نديم . . . » .

وامدت يدان قويتان جافتان تتناوله . . وهي تأمر في لهجة تـركيـة صـارمة خـادمها المـرافق . . « أحضـر ميـزان . . . ولـد . . . و . . . بِشْتَخْتَهْ . . » وهرع الخادم إلى غرفة سيدته . . . متخبطاً في مشيته . . . وعندما مَثُل أمامها . . . امرته بفتح الصنـدوق الخشبي المطرز بـا لفضة وإفراغ ما فيه من مجوهرات وماس وذهب في إحـدى كفتي الميزان . . . ووضعت هي بيـدهـا « نـديم » في الكفـة الثـانيـة ونـظرت إلى طـاهـر أفندي . . . وهي تمط شفتيها : ـ

ـــ ابنـك هذا ضعيف البنيـة . . . انظر . . إنـه لم يزن نصف مـا في البشتخته . . . أمان يا ربي . . أمان . . . .

وأخذ طاهر أفندي يد جدته يقبلها ، وهو يدعو لها بالصحة والعافية وطول البقاء . . .

ـــ ان نديماً في صحة جيدة . . والحمد لله . . ووزنه ليس مهماً . فالهدايا التي احضرتها له تكفي . . . ونحن لا نملك إلا تقديم الشكر والطاعة لك يا ستي الكبيرة . . والبركة في « حظرتكم خانم » . . .

ـــ ولكن . . . أريده أن يكون قوياً كالبغل . . . وعليـك الآن مسئوليـة كبيرة في تربيته وتطبيعه بطباع آبائه واجداده . . .

ـــ سوف أفعل ان شاء الله ، . . . . فطيبي نفساً ، وقري عيناً ، فأنا ووالدته سنهتم به ونسهر على رعايته . .

ونظر إلى زوجته التي وقفت مشدوهة ، وعينها لا تفارق ابنها وهو يتأرجح في كفة الميزان . . وقالت فيما يشبه الهمس . .

ـــ نعم . . نعم . . سيكون ولداً قوياً ، وسنرعاه دوماً إن شاء الله .

* * *

وقامت الخانم الكبيرة بعد أن أومأت بطرف عينها للخادم بحمل ما تبقى من المجـوهرات . . . ومشت في تؤدة وهي تـردد . . « أمـان ربي أمان . . . ولد صغير . . . وزنه قليل . . . » .

* * *

وعندما اختلى طاهر أفندي بزوجته . . نظر إليها وكأنه يراها لأول مرة . . . وأخذ وجهها بين يديه ، وركز عينيه على سواد عينيها . . . ودس

يده في شعرها الناعم الطويل . . فأحس بدفء أنفاسها ، وسمع دقات قلبها تتجاوب مع دقاته . . . وأخذ صدرها يعلو ويهبط . . . وتملكتها قشعريرة . . واهتز جسدها . . واضطربت مآقيها . . . واسبلت عيناها . . . وتدلت منها شفة ظمأى . . فأخذها بين ذراعيه ، واعتصرها بشدة وهو يقول : « كم أحبك يا هند . . . وهذا الولد زاد من قيمتك عندي . . . فاطلبي ما شئت . . فلقد ملكت عليّ حشاشتي وأصبحت وابنك كل شيء في حياتي . . فانتما النعيم ، وانتما السعادة . . وانفلتت من بين ذراعيه فجأة عندما سمعت صراخ ابنها . . . فأسرعت إليه . . . وقلبها لا يزال يخفق بالحب . . والرغبة . .

***

أقبلت الدنيا على طاهر افندي . . وكأن قدوم مولوده قد فتح أمامه أبواب الرزق . . فتضاعفت ثروته ، وكثرت وتنوعت تجارته ، ولم ينس هو أن يضاعف أجره عند الله ، فأكثر من الصدقات ومواساة الضعفاء والمساكين ، وفي ذكرى ميلاد ابنه كان يقيم الولائم للفقراء ويطعمهم سبعة أيام .

عندما بلغ نديم الخامسة من عمره كانت عينا والده ترقبه في حذر وتوجس ، تفرض عليه الطاعة وتدربه على الطريقة التي ارادها له . . احضر له معلماً يعلمه القراءة والكتابة . . . وتولى هو توجيهه . . يرشده في تحركاته وسكناته . . لم يتركه على سجيته ، ولم يدع لطفولته ان تكتسب من الحياة ما يستسيغه عقله الصغير أو أن يتعلم بالتجربة والمران ما يفعله بقية الأولاد من هم في سنّه . . . وفرض عليه اللغة التركية يتحدث بها معه . . وألح على زوجته في عند وإصرار وإكبار أن تطبعه بطباعها العربية ، أو تهيئه

لها . . . حتى انشغل به عن تجارته وغيرهـا من الحياة . . ولم يلتفت إلى زوجته وهي تشكو له آلام المخاض . . وعبر لها عن امتنانه ان هي انجبت ولداً آخر . . . واحترامه لها إن حقق الله رغبتها فولدت بنتاً . . .

***

ولم يحفل طاهر أفندي بمولودته الصغيرة . . وابتسم لزوجته وهـو يسلمها برقية جدته من استامبول تعرب فيها عن تهنئتها وهي تطلب تسمية البنت وجدان . . اسم أمها العزيزة ، وتشير إلى انها سترسـل مرسـولاً خاصاً يحمل الهدايا . . . ثم أخذها بين يديه ونظر إليها في حب وحنان وهو يقول : ـ

ـ إنها تشبهك كثيراً ، لذا أرجو منك ان تهتمي بها كثيراً ، وأما أنـا فسأتفرغ لتربية نديم . . وتنشئته في مرحلة الصبا هذه . . .



٥

جمعت « وجدان » في تكوينها الخلقي الجمال العربي ممزوجاً بالدم التركي . . وتميزت عيناها بالصفاء وشدة السواد ، كما كست بشرتها النعومة واللون القمحي . . . وتدلى شعر أسود كثيف من على كتفيها . . وانغرس أنف دقيق البنية وسط وجهها البيضاوي الذي ينتهي بذقن صغيرة مستديرة . . يعلوها فم منمق اختفت خلفه أسنان صغيرة بيضاء . . وحملت وجدان معها دوماً جسماً مربوعاً دقيق التكوين متناسق الأطراف . .

بينما وقف نديم وجسمه فارع الطول ، ممشوق القدِ ، مفتول العضلات . . مالت بشرته إلى البياض . . . واحتلت زرقة البحر عينيه . . . ولون القمح شعره . . أنفه كبير ، وفمه غليظ . . . وجبهته عريضة كبيرة .

وان انفردت وجدان بطلاقة اللسان والسطحية في الكلام والتعبير . . . فقد اتصف نديم بالرزانة ، والتعقل في الأمور ، وكان قليل الكلام فصيحه . . . عميق التفكير . . لا يدع شيئاً يمر دون أن يسأل عنه أو يعرف أسبابه ومسبباته . . . كثيراً ما يفلسف الأشياء ويصل بها إلى نهايتها إن استطاع ، والا حاول أن يوجدها عن طريق البحث

والاستقصاء . . . ثم وجد نفسه مدفوعاً إلى المزيد من الثقافة الإسلامية والعربية ، فبدأ بحفظ اجزاء من القرآن الكريم ، ثم قرأ السيرة النبوية الشريفة ، وتتبع اخبار الصحابة رضوان الله عليهم ، وتوقف كثيراً امام النظام الاجتماعي الذي اوجده الخليفة عمر بن الخطاب والذي حقق العدالة وكفل المساواة بين الرعية والحكام ، ثم انكب على كتب التاريخ وما حوته من حروب وفتوحات وتضحية ونصر ، ثم قرأ الشعر العربي ودواوينه ، وحفظ كثيراً من شعر الحماسة والفخر . . . ساعدته امه ـ كلما سنحت لها فرصة الاختلاء به ـ في تعريفه بامجاد العرب . . . تروي له القصص الزاخرة بالبطولات . . وتحكي له نماذج وحكايات عن أخواله وعاداتهم وطبائعهم . . . تعرفه باصهارهم وذويهم والحروب التي خاضوها ، والانتصارات التي حققوها . . فتشبعت روحه بأمجاد العرب ، واستيقظ في دخيلة نفسه شعور بالانتماء إلى نسبه لإمه وأخواله . . وإلى هذه الأمة المجيدة الخالدة التي فجر ينابيعها هادي البشرية . . ومبدد ظلامها ، سيد الخلق اجمعين محمد صلى الله عليه وسلم .

نشأت وجدان حياة مريحة . . لم تعرف سوى أن تأمر فيلبي طلبها . . أو أن تتمنى فيستجاب لها . . أحيطت بالرعاية والعناية ، وتحقق لها كل ما تتمناه فتاة تعيش في ترف وبذخ . . . . لم تعرف معنى المسئولية ، ولم تدرك ماهية الحياة أو غايتها . .

وصارع نديم سبل الحياة بعد أن سار في دروبها المتعرجة ، واصطدم بحقائق ملموسة امامه لم تصدقها عيناه وكأنه يراها او يسمع عنها لأول مرة . . . فتزاحمت الأفكار في رأسه ، وتدفق شعور باحساس خاص نحو واقعه وآلامه . . . فلم يقتنع بما حاول أبوه ان يهيئه له من بساطة العيش ونعيمه ، وادرك ان عليه مسؤولية تتخطى الحواجز التي احكمها

عليه والده . . . وأحس أن واجبه يفرض عليه الكفاح من أجل تحقيق ذاته . . . فالدنيا ليست ذلك القصر المنيف والحدائق المحيطة به والتي حاول والده أن يسجنه وأخته فيها . . فقرر ان يهجر حياة الترف . . وان ينزل من برجه العاجي الذي وضعته فيه اسرته ، وأن يتعايش مع واقع البؤس وأن ينصهر في بوتقه الحرمان حتى يستطيع ان يتفاعل مع الآخرين الكادحين . . . وسرعان ، ما دفعته رغبته الصادقة الى الجماعات المكافحة المناضلة فاختلط بهم وتعرف عليهم ، وتلمس مشاكلهم ، وتحسس آلامهم . . . وقاده طموحه الى التعرف على نخبة من شباب يعملون في سرية ويتبادلون الهمس في البحث عن الذات . . وتحقيق الوحدة العربية . . وطرد المستعمر الدخيل . . . والانضواء تحت لواء القومية . . فانتفضت روحه ... واستيقظ ضميره وهو لم يزل بعد فتى يانعاً لم يتخط العشرين من عمره .. وازداد نهمه لقراءة كتب التاريخ ، والنضال السياسي ، والكفاح الوطني .. وأبعد جانباً الكتب التي أحضرها والده والتي تتغنى بأمجاد الامبراطورية العثمانية .. وازاح عن بصره كتب المال والتجارة ...

وبدأ الصراع يشتد داخل نفسه . . . ثم ما لبث أن تسلل الى لسانه حتى لم يطق السكوت . . . فبدأت ملاحظاته تكثر واحتجاجاته عن واقعه والحياة التي يعيشها تشتد . . وكان لاخته نصيب كبير في النقاش وإن كانت لا تعي مما يقول شيئاً . . ثم اشرك معه والدته ، ولكنها بسلبية المرأة المستسلمة لم تشف غله . . فاتجه إلى أبيه . . . يحاوره . . ويجادله ويصيح محتجاً . . حتى بات الاثنان كل يمشي في طريق معاكس . . .

ولما كثرت معارضاته . . وبدا واضحاً تبدل مظهره وحالته النفسية . . وبعد ان طالت ليالي اختلائه بنفسه مكباً على القراءة

والاطلاع . . . لم يجد طاهر افندي بدا من تركه وشأنه مرغماً مكرها مخافة أن تتسع شقة الخلاف بينهما ، وإن كان يحس في قرارة نفسه بالحسرة والمرارة حيث لم تتحقق آماله في تحديد مسار حياته،رغم أنه لم تخل ساعات صفائه من سعادة استطاع أن يخفي معالمها على صفحات وجهه كما رأى ابنه يزداد عمقاً في مفاهيم الحياة ، ويتوغل في بحور السياسة ، ويتقدم خطوات إلى صفوف السياسيين العظماء .

٦

رغم أن الحياة في المدينة العربية التي احتضنت طاهر افندي شاباً ، ورعته رجلاً ، وأغدقت عليه النعم والخيرات كانت تروق له .. إلا أنه لم ينقطع عن زياراته المتعددة لوطنه الكبير طيلة السنوات التي قوي فيها عوده وكبر مقامه بين التجار .. وكانت استانبول قبلته التي يحج إليها كل عام .. لا بل إن ارتباطه بها كان إرتباطاً فكرياً ، وعائلياً ، وجاهاً ، وامتناناً .. منحته لقب — افندي — وامنت مستقبله وحياته ...

* * * * *

وعندما تفتحت عينا نديم .. ومن بعده وجدان .. وأصبحا في مقتبل العمر كان يصحبهما معه إلى تركيا ليتعرفا على أقاربهما ، وليكتسبا خبرة وتجارب عريضة هناك ... وكانت « استانبول » هي العاصمة الكبرى للامبراطورية العثمانية ، وملتقى العظماء من الأدباء والشعراء والفنانين والمفكرين والسياسيين والعسكريين ... كانت مدينة مفتوحة اشتهرت بالحضارة والتقدم والرقي ...

وكان إنبهارهما كبيراً في بادىء الأمر سيما وانهما نشآ في بيئة عربية محافظة على تقاليدها وعاداتها ، وتطبعاً بتلك التربية العسكرية الصارمة في صغرهما . . مما ترك في نفسيهما اثراً كبيراً في السلوك والأخلاق . . .

وقد أجاد « نديم » اللغة التركية نتيجة لتخاطبه بها وزياراته المتكررة إلى استانبول حتى اصبح يقرأ به كثيراً ، واطلع على نفائس الكتب وأمهاتها ... فتوسعت ثقافته وتنوعت ، وتفتحت مداركه ، وظهر نبوغه .. وعندما تخطى مرحلة الصبا .. رافق أباه إلى المجتمعات الكبيرة ، فرسخت قدماه في السياسة ، وأصبح يستهويه حديث المجالس وذكر الحروب وأسبابها ، ووقف متأملاً في غاياتها وأهدافها وعواقبها ، وما يجره التطاحن من خراب ودمار وإزهاق للأرواح البريئة ..

وكان يختلف كثيراً مع أصدقاء أبيه من علية القوم ووجهائها وقادتها من عسكريين ومدنيين وزعماء سياسيين ، كما كان يجهر برأيه منددأ بالظلم والعبودية اللذين يصحبان الاستعمار ، معارضاً القوة التي تُسخّر الشعوب وتمتص دماءهم . . .

وكان صغر سنه ، وحدة ذكائه ، ومركز ابيه وجده . . شفعاء له دوماً أمام التصلب التركي في الرأي وممن يكبرونه سناً ويستمعون إلى آرائه ونظرياته وأفكاره الثورية المتقدمة . . .

بينما جرفت وجدان الحياة المدنية . . وبهرتها وسائل الترف والحضارة التي انتشرت في الأوساط الارستقراطية في استامبول . . فحذقت اللغة التركية ، وتعلمت العزف على آلات موسيقية ، وأجادت الرقص . . . وشجعتها الجدة وأرشدتها إلى الصالونات الخاصة وقدمتها إلى علية المجتمع . . وما لبثت الفتاة أن أدركت معنى الإحساس بالحب عندما

يحتويها ذراعا شاب أنيق يرتدي بذلة عسكرية بيضاء ، ترصع اكتافه النجوم ، وتثقل صدره النياشين . . وأخذت ترسم في مخيلتها الصغيرة أحلاماً واسعة عن فتاها وفارس أحلامها . . ساعدها خفة دمها ورشاقتها ، وثراء والدها أن تكون نجمة المجتمع . . وأن تصبح محط أنظار الفتيان . . وهي بعد تلك الفتاة الغرُّ والزهرة الجميلة التي لم تتفتح بعد . . . وكان يحلو لها أن تلهو . . وأن تتصيد الشبان بنظرتها العميقة الساحرة . . وتشعر بثقة واعتزاز بجمالها عندما تراهم يتزاحمون عليها يخطبون ودها ، وتحس بتيه ودلال عندما تدغدغ حواسها كلمات المديح والإطراء . . منهم من يتمنى نظرة . . أو يرنو بسمة . . . أو يرجو وصالاً . . فتعلمت كيف تلعب بالقلوب ، واستطاعت بخبث وصبيانية بريئة أن تجرجر خلفها رجالاً . . حتى أجادت اللعبة بمرور الأيام التي كانت تقضيها هناك . . .

وكانت « هند » هانم تكتفي بالجلوس في البيت الكبير المطل على البوسفور وحولها الخدم والوصيفات . . ومن مشارفه ترنو ببصرها إلى الأفق البعيد ، وتنظر إلى البحر وزرقته وصفائه كأنها تستلهم العون . . وترقب بشوق موعد عودتها وأولادها إلى مدينتها المحببة وموطنها الأصيل .

* * * * *

كان الفراغ الذي ينشأ بعد عودة الأسرة من استامبول كبيراً . . وكان يتجسم ويقسو على وجدان .. إذ أن الجو الذي تعيشه في ذلك القصر المحاط بأسوار عالية لا يسمح لها بالحرية المطلقة التي كانت تمارسها في ــ العالم الثاني المتحضر ــ كما كانت تسميه فيما بينها وبين نفسها .. لم تجد ما تشغل به نفسها سوى العزف على البيانو.. غير أن

تكرار الموسيقى غدا أجراساً تدق داخل رأسها وتحس به كالمطارق .. لم تكوّن لها صديقات ، فقد منعها حزم أبيها من الاختلاط بعامة الشعب ، وهي لا تستطيع الخروج من البيت إلا بإذن أو بمراقبة والدتها أو احدى الوصيفات .. فضاقت بها سبل الحياة ، واظلمت الدنيا أمام ناظريها .. فأخذ هناؤها يتكدر ، وصفاء شمسها تعلوه الغيوم ، وبدأ سكون نفسها يغلي كالبركان . . وأثقل عليها وزاد من همِّها تفتح طاقات جسدها الحسية بعد أن أشرفت على العشرين من عمرها وأحست بالوحدة تحيط بها من كل جانب بعد أن انشغل عنها والدها بأعماله وتجارته ، كما انهمك نديم في قراءاته وكتبه وتأملاته وغيابه الملحوظ عن البيت في اجتماعات سرية ، فصار همها أن ترقب موعد سفرها إلى استامبول وخروجها من هذا السجن والعذاب . . . وباتت تعد الليالي ، وتحلّق بخيالها الواسع في الآفاق البعيدة هناك .

٧

انكب نديم يدرس التاريخ ويطالع الكتب السياسية والخطط الحربية . . . وكلما توغل في معرفة وتقصي الحقائق عن الإمبراطورية العثمانية وفتوحاتها وتوسعاتها والأساليب التي كانت تحكم بها الدول وخاصة العربية منها . . . ازداد حنقاً وكرهاً . . .

لم تعجبه سياسة المناورات والأحلاف والمعاهدات التي كانت سائدة آنذاك . . . ولم يرض عن أسلوب وتصرُّف الولاة والقادة السياسيين والعسكريين الأتراك في البلاد التي غُلبت على أمرها . . .

وأصبح يحس بأن انتماءه إلى وطنه العربي يفوق كل تقديرات والده . . . . وأن الدم التركي الذي يجري في عروقه ، ولون بشرته ، وزرقة عينيه محل سخطه . . . كما أن التربية التي نشأ عليها ، وتسلُّط والده عليه وسيطرته على أسرته ، وتعسفه ، أصبحت أموراً مرفوضة لديه .

وكان كلما استرجع استقباله للحياة ، وجدته حفيدة الوالي التركي ومعاملتها له ونظرتها إليه ، والميزان الذي وضع فيه ـ كأي سلعة ـ وتقييمها له ولإنسانيته بالذهب والأحجار الكريمة . . . سَخِر من نفسه ، وامتلأت

نفسه نقمة على ذلك الترف الذي أحيط به ، والاسرافِ الكبير الذي عاشه ولا يزال حتى يومه هذا . . .

* * *

وعندما أعلنت الحرب العالمية وبعد أن انضمت تركيا إلى ألمانيا .. تفجرت كل مشاعر نديم الدفينة ضدها ، وأصبح يرفض أيّ صلة أو علاقة بها ...

وكثرت مواقفه وتصادمه مع والده حتى لم يعد يشفع له مرضه الذي أخذ يشتد وينذر العائلة من حين لآخر . . .

ولما فرض التجنيد الإجباري في تركيا . . طلبت من الدول التي تنضوي تحت لوائها تعبئة شبابها وطلبهم للعسكرية . . وسرعان ما تلقى طاهر أفندي بلاغاً بطلب ابنه للجندية والالتحاق بموقعه في الجيش . . إلا ان « نديم » وقف يصرخ في وجه أبيه . . . : -

— لا . . لن أنخرط في سلك العسكرية ، وسوف لا أحمل سلاحاً أحارب به دون هدف . . . فضلاً عن أنني لا أجد في نفسي شعوراً وطنياً يربطني بالباب العالي . . . إني وإن كنت ربيب العز وسليل الجاه..إلا أن لهذا البلد العربي الذي ولدت فيه ، وترعرعت في كنفه ، واستنشقت هواه ، وتمرغ خدي على ترابه ، واكتويت بلظى حزارته ، وعرفت أصالته . . الكلمة وفصل الخطاب في إجباري على الالتحاق بالجيش . . نعم . . سأكون جندياً يحارب ويدافع عن هذا الوطن إذا هبت رياح الحرب عليه . عندها سأكون أول مدافع عن شرفه وعزته واستقلاله . . .

لا تحاول أن تفرض علي يا أبي رأياً يخالف عقيدتي ومبدئي ونظرتي

للحياة . . . لم أعد صغيراً ، ولم تعد تخيفني نظرة الصرامة والأسلوب العسكري الذي عودتنا عليه . . .

وإذا كان من الضروري حمل السلاح والانخراط في الجندية فان من الوجوب أن أبدأ بالعمل السياسي الذي انشد فيه ضالتي وإن أنضم إلى الجمعية الوطنية التي تناضل في سبيل الحق والحرية والاستقلال . . .

أن في هذا البلد عناصر وطنية تفكر وتخطط للمستقبل عن طريق الإقناع بالرأي والحجة، وتطالب بحقوقها بكل ما تملك من وسيلة للسلام . . . أما إذا فرضت علينا الظروف حمل السلاح فنحن مستعدون . . . لأننا صممنا على استرداد حريتنا ، وسنسعى إلى استقلال بلادنا ، وسنحقق الحكم الذاتي لوطننا ان شاء الله تعالى . . . وسنمضي في ذلك الطريق حتى الموت . . .

* * *

استمع طاهر أفندي إلى ابنه وطاقاته الكمينة تتفجر أمامه لأول مرة . . . واعجب فيما بينه وبين نفسه للحظات بذلك الشعور الوطني الذي سيطر على أفكاره ، وحماسه الذي اقتلع كل احترام وطاعة امامه . . . وأحس بشعور الأب والرجل المجرب في الحياة أن بداية ابنه قوية ، وان انطلاقته ستكون ذات شأن كبير . . . غير أن سلطته وجبروته ، وحبه وتفانيه للأعتاب العالية ، جعلته لا يحاول أن يتفهم ثورته ، أو يتقبل كلامه . . . ووجد الأمر صعباً كي يوافق بعقليته المتصلبة أفكار ابنه وتحديه السافر لكل ما بناه في سني عمره . . . فأخذ جسده يرتجف ، ويده ترتعش . . . وتناثرت الكلمات من فيه ونظرات عينيه

ترمي شرراً . . . وقبع نديم في هدوء ووقار ينصت إلى أبيه وعيناه جامدتان ونظراته متحجرة . . . : -

ـ ما هذا الكلام الغريب الذي لا يقبله العقل ولا يرتضيه الضمير ؟
كيف تسمح لنفسك أن تجردها من حب الوطن الكبير ؟
كيف تجرؤ على أن تمحو وجودها من تفكيرك ؟
إن انتماءك للبلد العربي هذا جزء لا يتجزأ من الانتماء الكبير للامبراطورية العظمى والأعتاب العالية . . . إن هذه النعمة التي تعيشها ، والحياة الرغدة التي تتمتع بها ، وفضلها عليك وعلى تربيتك هي من روافد جدك البيك . . . أنا لا أريد عصياناً . . أو تمرداً . . ولا أقبل أن يشذ إبني عن سلوك الأسرة وأن يشق عصا الطاعة والولاء للباب العالي . . .

***

واشتدت الأزمة على طاهر أفندي . . . فارتمى على أقرب مقعد . . . وهرع نديم إلى أبيه يأخذه بين يديه . . . وصراع عنيف داخل نفسه ، وتيارات شتى تتجاذبه . . .

وأحس لأول مرة إن قلبه موزع بين حبه لأبيه .. وقضيته الكبرى . . . بين الواقع الذي يعيشه ويفرض عليه ضريبة الولاء .. وحلمه الذي نذر له نفسه . . . للحرية والاستقلال . . .

ووقفت الأم في توجس وخيفة ترقب رجلها وولدها . . . ويدها تعصر فؤادها من مغبة المجهول . . . وهي لا تدري ماذا تفعل . . .

٨

كثر غياب نديم عن البيت وكان عليه أن يكافح ويجاهد ويناقش ويقارع الحجة بالحجة كي ينضم الى الجمعية الوطنية التي كانت تعمل في السر لصالح الوطن والتخلص من الاستعباد الأجنبي . . . فقد تعرض لامتحان عسير من بعض أعضائها المتشددين بسبب بياض بشرته ، وزرقة عينيه ، والدم التركي الذي يجري في عروقه . . وطُعن في . . عروبته . . ولكنه صمد . . . واتُّهم بالجاسوسية . . ولكنه صبر . . . وما لبث أن أثبت لهم ولاءه وإخلاصه للقضية . . .

وأحس أن أموراً كثيرة تجرى أمامه بعد أن تحرر من القيود التي كانت تكبله ، واستطاع أن يطلق نفسه من السجن الكبير الذي عاشه في قصر أبيه . . .

وبدأ فكره السياسي ينضج ، واجتماعاته بالذين يرفضون واقعهم تتميز بالوطنية . . . وما لبث أن اتخذ مقعده بين الرؤساء . . . وشعر بمسئولية مبكرة عندما اختير أمين سر « الجمعية الوطنية » تأكيداً لإخلاصه ، وحماسته لعروبته ، وتقديراً لفكرة النيّر وبُعْد نظره في تقدير المواقف وعواقبها .

وجلس بين القادة يستمع إليهم ويناقشهم ، وما لبث أن تخطى الحواجز الفكرية والزمنية والعنصرية التي كانت تتراقص أمام أعينهم . . . فشارك في إرساء الأسس الصحيحة لميثاق الاستقلال ، وعمل معهم على وضع الخطط السلمية لمواجهة التحدي الذي سيولد مع الإعلان عن كيانهم ، وتنويع الحوار المتوقع بينهم وبين السلطات . . وساهم في تقديم اقتراحات متعددة الإتجاهات والتي من شأنها تجنيب البلاد أي صدام مسلح قد ينجم مستقبلاً . . . وقاد مع نفر قليل من صحبه الحلول التي تتسم بطابع المحبة والسلام مقرونة بالحجة القوية والإقناع القاطع . . . ومال مع الرأي الذي نادى بالاستعانة بالأصدقاء من داخل البلاد وخارجها حتى يتحقق الهدف وترسو السفينة إلى بر الأمان . . .

***

ومُنيَ والده بنكسة وخسارة في تجارته وأمواله . . . شأنه شأن بقية التجار نتيجة للكساد العالمي ، وانكماش السيولة ، وارتفاع الأسعار ، والغلاء الذي عم ارجاء المعمورة . . . فاصيب بشلل أقعده طريح الفراش لا يستطيع تحريك أطرافه ، وانعقد لسانه ، وتضاعفت نوبات قلبه ، فتدهورت صحته ، وساءت حالته النفسية . . .

وجلست هند هانم إلى جواره . . . تقدم له ما يحتاجه . . تواسيه وتمرضه . . . لا تفارقه ساعة من نهار أو ليل . . .

***

واشتد ضيق وجدان ، وازدادت كآبتها من البقاء في البيت وحيدة ، لا تجد من تكلمه أو تبادله احزانها . . . وحبست نفسها في غرفتها

تبكي بعد أن سمعت أخبار تصاعد الحرب وغلق موانىء تركيا ــ فلم يعد يسمح بالخروج منها أو الدخول إليها ـ وهي ان لم تعي ما تعنيه الحرب من قتل ودمار .. فقد تأكد لها أنها سوف لا تتمكن من زيارة استامبول .. وستحرم من متعتها هناك .. وأنها ستظل حبيسة في قصر أبيها الكبير .

وبدأت الهواجس تلعب برأسها الصغير . . . والأفكار السوداء تعشعش على مخيلتها : ـ « . . هل اتخلص من الحياة ؟؟؟ هل أقذف بنفسي من عل ؟؟ .. أم أغرز سكيناً حادة في قلبي المكسور ؟!؟ .. إن الحياة أصبحت مملة . . . رتيبة . . ضيقة . . . قاسية . . . الوحدة تكاد تخنقني . . لا أحد بجانبي يسلّيني . . . لا أجد من أتكلم معه . . ليس لي صديقات أو أصحاب . . . أف لك من حياة !!! أين أنت يا استانة ؟؟؟ أين تلك الحفلات الصاخبة . . . والمجتمع الراقي . . . والرقص . . . والغناء . . والسهر . . . والضحك . . . والمرح . . . ؟؟؟ . . . ألا لعنة الله على الحرب . . . لقد حرمتني من السفر إلى تركيا الحبيبة . . . وسلبتني المتعة الوحيدة في حياتي . . . ليتهم يتصالحون . . . ليت هذه الدول توقف الحرب وتنهيها . . . أواه . . . يا لحظي التعيس . . . ويا لشقائي وطول ليلي إن بقيت في هذا السجن . . . أكاد اختنق . . . أكاد أفقد عقلي . . . أكاد اجن . . . . »

وخرجت من غرفتها تجري . . . وطلبت من « الدادة » أن تجهز لها حماماً تركياً ، وأن تساعدها في تدليك جسمها ، وتمشيط شعرها . . . ثم بدأت تستدرجها في الحديث . . . وفي داخلها ثورة عارمة . . .

ــ . . . كم عمرك يا دادة ؟؟

ــ لا أعلم يا بنيتي . . . اقترب من الخمسين أو ربما تخطيتها منذ زمن بعيد . . . سيان عندي . .

ـ وأين رجلك ؟؟

ـ إن زوجي قد مات منذ سنين طويلة !!!

ـ وكيف تستطيعين العيش بلا رجل ؟؟؟ اعني كيف ......

ـ إني كبرت في السن يا وجدان . . . ولم يعد يهمني شيء سوى انتظار الأجل المحتوم . . .

ـ ولكن . . . قولي . . اخبريني . . كيف يمكن لفتاة تمتلىء حيوية ونشاطاً أن تعيش وحيدة إلّا من أفكارها التي تنسجها في خيالها ؟؟؟ وكيف تستطيع أن تتخلص من نداء الجسد وعوائه المستمر ؟؟؟ وكيف يتسنى لها أن تخمد النار التي تتأجج في قلبها وتسري في عروقها كلما مررت أناملها على ملامسها الناعمة ؟؟؟

ـ على الفتاة أن تصبر حتى يظهر في حياتها الرجل الموعود فتتزوج وتعيش مع رجلها . . .

ـ وإذا كانت جميع النوافذ والأبواب مغلقة . . . وإذا كان الطريق شائكاً مسدوداً . . . فمن أين يأتي ذلك الرجل ؟؟ وكيف ؟؟ أفهميني بالله عليك . . . لماذا اعيش وأنا محرومة من نعيم الدنيا ومتعتها ؟؟؟ . . . وكيف تنصحينني بالصبر وأنا لم يعد في حياتي مكان للصبر . . . كل طاقات جسمي تصيح . . . وكل . . .

ـ مهلاً يا بنيتي . . . وعليك أن تحمدي المولى جل وعلى . . . فالله قد هيأ لك حياة رغدة ورفاهية ويسر ، ورزقك ابوين كريمين ، وأخاً حنوناً ، وجاها وعز ومجدا .

ـ وماذا تجني الفتاة من كل ذلك سوى التعاسة إذا لم تستطع أن تتمتع بحريتها ، اذا لم تحس بكيانها ، أو تشعر بإنسانيتها ، . . . إنني هنا

أحس وكأني قطعة من الأثاث . . . جامدة . . . مسلوبة الإرادة . . . فاقدة الحس والشعور . . . اعطيني حريتي وخذي كل شيء . . . خذي المال والجاه والذهب والألماس . . . هل فهمت يا دادة ؟؟؟

ـ الذي أفهمه ـ فقط ـ هو الصبر والانتظار حتى يُقَيِّضُ الله الرجل الذي يسعدك ويملأ حياتك انساً وبهجاً . . .

* * *

لم تقتنع وجدان بكلام الدادة ـ فالانتظار ليل طويل حالك السواد ليس له صبح ينبلج . . . والصبر مذاقه مر علقم ليس لـه حلاوة . . . وأحست كأن أنفاسها تختنق . . . وأن رأسها يكاد ينفجر . . . فخرجت تجري من القصر . . . ومشت متوغلة في أرجاء الحديقة سارحة . . مطرقة . . لا تحس بحفيف أوراق الشجر ، ولا تسمع وقع أقدامها المضطربة . . . .

وقادتها قدماها إلى أحواض الزهور . . . وأبصرت ـ فجأة ـ شاباً أبيض اللون . . قوي الجسم . . . كبير اليدين . . ممسكاً بمعول يجرف به التراب ويسوي به دوائر صغيرة . . . وقفت خلف شجرة ترقبه وهو يعمل في همة وجد . . . وعلى وجهه ارتسمت علامات الرضا والهدوء . . . وعندما انتهى من غرس النبتة الصغيرة . . . مشت إليها وكأنها لا تراه . . وفزع الشاب لرؤيتها ، وفتح فاه مشدوهاً وهو متكىء على معوله وكأنه يحميه من الوقوع على الأرض . . . فنظرت اليه نظرة أفرغت فيها كل ما عرفته من خبث ومكر . . . ثم مرت أمامه كالطيف وهو لا يصدق عينيه ،

فما لبث أن اختل توازنه وسقط على تلك الغرسة الصغيرة فحطمها وما شعر . . . وانفلتت هي تجري إلى غرفتها وابتسامة نصر معلقة على شفتيها . . .

وبدأ التحدي خفيفاً ممتعاً داخل نفسها . . . فقد وجدت ما تلهو به وتقضي ساعات فراغها . . .

٩

لم تعبأ وجدان بالنوم عندما جفاها كالعادة كل ليلة . . . ولم تكترث بالقلق الذي أسهد عينيها وأرّق ليلها . . .ولـم تضق ذرعاً بالوحدة ، كما أنها لم تشعر بالهدوء الذي لفّ أرجاء القصر ، ولم تحس بسكون الليل الذي أرخى سدوله من حولها . . . ، فقد وجدت ضالتها . . . وتحسست بيد مرتعشة جسدها الدافىء . . . فشعرت بقشعريرة واحساس غريب يسري في أوصـالها . . . . وحـاولت أن تتـذكـر مـلامـح وجـه ذلـك الشـاب القوي . . . لم تره من قبل ولم تلحظ وجوده ، وأنّى لها ذلك وهي التي لا تخطو عتبة الدار . . . « ربما يكون أحد الخدم الأتراك الذين يعملو ن في خدمة أبي . . . !! ولكن . . . ذلـك الجسم العريض ، وتلك العـينـين الواسعتين . . والشارب الصغير الدقيق ، والشفاه المنسقة . . . أواه وآه من ذينك الذراعين القويتين ، والعضلات المفتولة . . . » .

وأسبلت جفنيهـا . . ثم اغمضت عينيهـا . . . وخيـالها نشط سارح . . . وقلبها يدق بسرعة مضطربة . . . ويدها لا تزال تصعد وتهبط وتتحسس جسدها . . . وغلبها النوم . . .

***

وعندما أفاقت صباح اليوم التالي . . . شعرت بحيوية ونشاط ، ودبيب يسري في أوصالها . . . وطلبت من وصيفتها أن تجمع لها من ورود الحديقة أحسنها ، ومن الزهور أجملها . . . وقامت في خفة ورشاقة تجوب أرجاء البيت ، وشعرت بشهية قوية إلى الأكل . . وبدت مرحة طروباً ، مما أثار دهشة من حولها . . .

وترقبت ساعة خروجها أمس . . . وبقوة واندفاع دلفت من الباب الخارجي للقصر متجهة إلى تلك الشجرة التي اختفت وراءها بالأمس وكأنها الهدف الذي ترمي من خلفها سهامها . . . وهناك . . . وجدته كما تخيلت ليلتها أن تلقاه . . . لم يتغير في ملبسه الخشن شيء . . . وهي التي اختارت بدقة وعناية ملبسها ، وتعمدت أن تمر أمامه وعيناها مركزة على وجهه . . . فتوقف عن الحرث ، ونظر إليها نظرة خفية مستترة . . . وفي خفة ورشاقة ، وتيه ودلال ، أوقعت نفسها على الأرض ، وندت منها صيحة ألم وكأنها تستغيث . . . ولم يدرك المسكين ماذا يفعل . . . فهرع إليها وحاول أن يساعدها على النهوض . . . ولكنها تمادت في التأوه والتألم ، وأمسكت برجلها اليمنى وكأنها لا تقوى على الوقوف عليها . . . . ورمت بذراعها حول عنقه وتعلقت برقبته . . . ولامس صدرها صدره ، فحملها وكأنها طفلة بين ذراعيه وهو لا يصدق ما يجري أمامه . . .

قالت له بلغة تركية : ـ

ـ . . لقد عصرتني . . (وأردفت في دلال) إن ذراعيك قويتان . . آه . . . آه . . .

ـ . . سوف أقطعهما « أفندم » إن تأكد لي أنهما تسببان في ألمك !! . . .

ـ ألم . . . !!! من قال انهما آلماني ؟؟

ـ ولكن لماذا . . ومن أي شيء تشكين أو تتألمين « خانم » ؟؟

ـ ألا ترى أن رجلي قد التوت . . وأني لا أقدر على الوقوف عليها . . اعتقد اني لا أستطيع المشي . . آه . . آه . . .

ـ سأكون مسروراً جداً لو حملت سيدتي الى حيث تريد !! ـ

ـ إذن . . خذني إلى القصر . . ولكن لا تضغط على جسمي النحيل بيديك القويتين هذه . . (وتحسست عضلات ذراعيه . .) . . .

ـ يبدو أن سيدتي الجميلة مرهفة الحس . . فأنا لا أضغط ولكني أخشى عليك من السقوط إذا أنا لم أُمسك بك جيداً . .

ـ أحقاً تخشى علي من السقوط ؟؟ أواه . . شكراً . . . يبدو أنك شاب ظريف . . . ما اسمك ؟؟؟

ـ مقصود . . . مقصود أوغلو !!!

ـ كم مضى عليك هنا . . اقصد في خدمة أبي !!!

ـ هل أنت ابنة أفندينا طاهر بيك !!! كم أنا سعيد . . سعيد حقاً . . إني في خدمة مولانا منذ سنتين ، ولكني لا أعتبر نفسي موجوداً هنا إلا من أمس . . . أمس فقط !!!

ـ أوه . . شكراً . . . لقد وصلنا . . هيا انصرف ، ولا تلتفت خلفك . . . (وبلفتة بارعة) قل لي قبل أن تمضي . . . أين تسكن ؟؟

ـ في ذلك الكوخ سيدتي . . . في طرف الحديقة الغربية . . .

ـ في أمان الله . . .

ـ أتمنى لك الصحة والشفاء ، والمرح الدائم . . خانم . . .

وعندما غاب عن ناظرها . . . أخذت تقفز فوق سلالم الدار رقصاً

وطرباً ، وكل ما فيها يحس بضغط ذراعيه القويتين ، وكأنها لا ترى سواهما في دنياها الضيقة . . .

تعلق قلب وجدان بذلك الشاب « مقصود أوغلو » . . وأصبح اسمه يعني شعوراً خفياً ، ودبيباً ملموساً ، ولم تدر ماذا تفعل . . . كانت البداية لهواً وتزجية فراغ . . . ثم أحست بإحساس غريب يداهمها كلما لاقت عيناها عيناه ، أو لمست يداها شعره أو يديه . . .

وما لبثت أن أحبت الحديقة وأشجارها وأغصانها ، وأصبحت تقضي أكثر أوقاتها في ترتيب وتنسيق الزهور ، وأحبت الرياحين والورود . . . وساعدها مقصود في تنمية تلك الهواية التي اشغلتها وقربتها منه ، وهو يطمع منها وصالاً يرفع من شأنه ويحسّن في وضعه ويخرجه من غياهب الظلمات إلى النور الذي أخذ يشع أمام عينيه ويقوي الأمل في نفسه . . .

وسرعان ما تآلفت القلوب . . وتقاربت الأرواح . . . وأصبح كل منهما لا يطيق فراقاً عن الآخر . . .

ودعاها ـ يوماً ـ إلى كوخه فتمنعت . . . وقبض على ذراعها فتأوهت . . . ومال يلثم عنقها فتنمرت ، وصفعته بيد رقيقة على خده فأيقظت فيه رجولة قوية ، وفحولة هائجة . . . فنظر إلى وجهها الهادىء الناعم وفي عينيه بريق لم تألفه . . . وعربدت الشهوة في وجهه ، فجذبها بقوة وقسوة . . فصدرت منها صرخة حادة استجاب لها نديم وهو يدلف إلى باب الحديقة الغربية إثر مطاردة رجال الأمن خلفه . . . ورأى ما رأى . . . فحمل المعول الذي كان ملقى على الأرض أمامه وهوى به على رأس ذلك الشاب الذي أمسك بأخته فشجّه نصفين . . . وحاول أن

يلحق بها ضربته الثانية . . . إلا ان منظر الجثة التي ترنحت إلى الأرض ، والدماء التي غطت وجهه ، والخوف الذي ارتسم على وجه اخته جعلت الضربة تنحرف قليلاً فلم تصب منها مقتلاً . . .

وكانت هناك عيون تتلصص من خلف إحدى الشجيرات وتسجل شريط ما حدث . . .

١٠

كانت إحدى ـ العيون ـ المنتشرة في البلاد قد وشت بأعضاء الجمعية التي أخذت تنظم أمورها وترتب نفسها ليوم معلوم . . .

وتفحص رجال الأمن الأسماء التي ادرجت في القائمة فوضعوهم تحت المراقبة الشديدة ، وصاروا يترصدون خطاهم ويتابعون تحركاتهم . . .

وكان نديم أحد أولئك الأشخاص . . . غير أن قرابة أبيه من الوالي ، ومركزه ـ ،وثراءه . . . جعلهم يتلكأون في القبض عليه كما فعلوا بالآخرين . . غير أنه لم يغفل عن أعينهم . . .

وعندما أحس نديم بملاحقة المخبرين السريين ومتابعتهم خفية لتحركاته عمد إلى المناورة والمراوغة ، والتهرب من المراقبة . . .

وقد كان راجعاً تلك الساعة من اجتماع سري ، ولم يشأ ان يسلك طريقه المعتاد . . فخرج من باب الحديقة الخلفي . . وعاد إليه ـ بعد أن اطمأن إلى أنه قد افلت من أعين الحراس .. فما لبث أن وقع في تلك المصيبة التي ألمت به دفاعاً عن شرف الأسرة الذي كاد أن يلطخ به العار . .

* * *

عندما سمع صراخ اخته . . . وشاهد ذلك الفحل ممسكاً بها . . - اسودت الدنيا في عينيه . . . وغلت الدماء في عروقه . . . ودفعته نخوته إلى حمايتها والنَّيْل ممن حاول الاعتداء عليها . . . ولكنه لم يرحمها من غضبه ، فما وجودها في ذلك المكان في تلك الساعة إلا دليل على تواطئها ، والاشتراك معه فيما كانا فيه . . وبقوة الفتى ، وساعد الشباب ، والشهامة العربية . . . أوقع ذلك الشاب مضرجاً في دمائه بضربة واحدة . . . وأصاب اخته بجرح بليغ في كتفها وخدش في وجهها . . بعد أن انحرفت يده قيد انملة عن موقعها . . .

***

وقعت الحادثة على الأم وقع الصاعقة . . . وأحست بطعنة حادة تُقَطِّع أوصالها . . . وهالها منظر الدم ينزف من ابنتها . . . حتى إذا - استعلمت الأمر واستبينت الحقيقة كان جرحها دامياً وألمها بليغاً . . . فهذه ابنتها على مشارف الهاوية . . . وها هو ذا ابنها يقتل ذلك الفتى وكاد أن يلحق به أخته . . . فيا لهول المصيبة . . . ويا لفداحة الأمر . . . « وما عساي أن أفعل ؟ وكيف يكون التدبير ؟؟؟ » . .

تماسكت قليلاً . . . وكان عليها أن تشحذ فكرها وتقرر ما هي فاعلة فالوقت أمضى حداً منها . . . ونظرت إلى ابنها والدموع تحجب الرؤية أمامها وهو يرتجف من هول ما جرى . . . . -

- لا أدري ماذا أقول . . أو ماذا أفعل ، إن اختك جلبت لنا العار . . . وسوف لا يغفر لها أحد جرأتها وسلوكها المشين . . . وما فعلته أنت يا ولدي هو الواجب الذي كان لا بد منه . . . ولكن . . . قتل إنسان أمر يعتبر جريمة في نظر القانون . . . حقاً . . لقد كنت

تدافع عن شرف اختك الذي هو شرفك وشرف العائلة . . . ولكن ربما تحتاج إلى دليل أو شاهد . . وستظل أنت القاتل في نظر الشرطة . . . وربما يقبضون عليك . . . وواحسرتاه ووا ويلاه . . . كيف سيصبح وضع هذه الأسرة ؟؟؟ وكيف تغدو بلا عائل أو سند ؟؟؟ إن هذا المصاب كبير . . . أكبر من أن اتحمله وحدي . . . فوالدك مريض مقعد لا يقدر على شيء . . . وأختك وضعها سيء جداً وربما يزداد سوءاً وتعاسة . . . وأنت . . . ولدي وقرة عيني وأملي وحياتي . . . ماذا اصنع لو قبضت الشرطة عليك . . . سيقبضون معك روحي . . . سيقضون على آمالي كلها . . . أرجوك . . . ارجوك يا ابني أن تبتعد عن أعينهم . . . أن تختفي . . . إذهب إلى أخوالك في البادية . . . قص عليهم ما جرى بصدق . . . سيساعدونك . . . (والبكاء يغلبها حتى غاب صوتها) . . سيحمونك . . فأنت ولدهم وان بعدت الشُقّة بيننا وبينهم .

- ولكن يا أمي . . كيف أهرب من الواقع ؟؟؟ علي أن اثبت براءتي . . . إن أي إنسان عربي مسلم لا يتردد مطلقاً في الدفاع عن عرضه حتى لو أدى الأمر إلى القتل . . إنني ملزم بالبقاء معكم ، وأنتم قد تحتاجون إلي . . . .
- عليك أن تفهم ما أقوله يا نديم . . .
- ولكن ياأمى أنت تعرفين أن علاقتنا بإخوالى مقطوعة وهم لا يحبون أبي ولا يعرفون أبناءه ـــ فكيف ألجأ إليهم وأنا ملطخ اليدين وعار أختى يسبقنى إليهم ؟ ؟
- ولكنك انقذتها . . . وانقذت شرفها . . . وهذا يعني عندهم التجاوز عن الخلافات القديمة . . . (وانكفأت عليه تقبله في

وجنتيه . . . وتمسح خدها بيديه . . . ورعشة قوية تهز جسمها . . . فـاخذهـا بين يـديه . . وقبـل رأسهـا . . . والـدمـوع تنهمـر من عينيه . . .)

* * *

تفاعلت في نفس نديم تيارات مختلفة ، وانفعالات متباينة . . .
أيهرب من مسرح الحوادث وهو الذي دافع عن اخته وحماهـا من اعتداء سافر ؟؟؟
هل في كلام والدته حس ومنطق لأن رجال الأمن لا يعـرفون أو يقدرون دوافع القتل ؟؟؟
أيسلّم نفسه للشرطة يفعلون به ما يشاؤون وهو يعرف أنه هدف لهم وسـوف لا يتورعـون في اهتبـال الفـرصـة للحـد من نشـاطـه وايقـاف تحركاته ؟؟؟
وكيف يرمي وراء ظهره الرسالة التي بدأها ، والأمانة التي تحملها ، وهو واحد من الذين نذروا أنفسهم وأقسموا على الكفاح في سبيل تحرير البلاد وتخليصه من الحكم الأجنبي ؟؟؟
أيترك والده وهو في حالة تعيسة . . . فلا هو حي يقدر على حماية أسرته . . . ولا هو ميت يسأل ربه الغفران له ؟؟ .
وهذه أخته التي تعاني من الجرح والنـزيف . . والشعور بـالخجل والعار . . . . . . وأمه التي تقف حيرى بين الإثنـين . . . ويزيـدهـا ألماً وحسرة مصير ابنها الذي لا يدري أحد أين وكيف سيكون ؟؟

* * *

واشتـد الصراع بـين عقله وعـاطفتـه . . ووقف مـوزع الخـاطـر

والفؤاد . . . آلامه تزداد كلما فكر في هذا الخضم الكبير من الحياة المليئة بالمشاكل والأزمات التي تمتحن الانسان وترزؤه دون أن يكون له يد فيها سوى أنه فرد من هذه البشرية يتقبل مسرتها ويتحمل وزرها شاء أم أبى ، رضي أم رفض . . .

* * *

وقرر أن يختفي عن الأضواء فترة قد ينسى الناس فعلته بعد أن يكونوا قد تفهموا دوافعه ... وحكموا له أو عليه ...

وارتضى أن يبتعد عن المراقبة التي اشتدت عليه وضاقت بها نفسه كي يستطيع أن يجد مناخاً جيداً يقدر ان يتنفس منه هواءً نقياً يستنشق نسيم الحرية في صحراء البادية وبطونها . . .

* * *

وقبل أن يودع أمه دس في يدها ورقة وحملها رسالة إلى زميل له في الجمعية يدعى « جابر بن ضاحي » ، وطلب منها تسليمها له في يده . . .

والتفت إلى والده المريض وعيناه تفيضان حزناً ودمعاً . . . كان وجه أبيه يقطر ألماً . . ولسانه يتلعثم في فمه ودمعة حيرى وقفت على مفترق عينه السليمة . . وأخذ جسده ينتفض ، وعروق جبهته تبرز وكأنها بركان يريد أن ينفجر . . . ولم يجد ما يعبر عن شعوره نحو ما رأى وسمع سوى أن يحرك رجله ويضرب بها الأرض بقوة وقسوة . . .

ولم يدرك نديم ما يريد والده التعبير عنه . . . فأخذ يده وقبلها وبللها بدمعه الحزين وهو يقول : ـ

ـ « هذا مصيري يا أبي . . . لا تبتئس . . . فَالحقّ يظهر إن شاء

سأتغيب . . . وربما أتشرد رأفة بأمي . . . ولأسباب خاصة تضطرني لذلك . . . ولكني سأعود . . سأعود . . . فادعو لي بالتوفيق يا أبي . . . ولأختي بأن يخفف الله مصابها ، وأرجو أن تجد في قلبك رحمة لأنها لم تقدم على ذلك الخطأ إلا بدافع صبياني . . . لم تفكر في أهلها أو في نفسها وهي ما زالت صغيرة السن طائشة التفكير . . . ولقد عماني الغضب وروعني منظر ذلك الفتى وهو ممسك بها محاولاً أذيتها . . . فالله وحده يسامحني على فعلتي . . . ويساعدني في محنتي . . » .

***

وخرج يلهث . . . وقلبه يدق بسرعة . . . وعينه لا تبصر الطريق أمامه . . .

١١

ما اطول ساعات المصائب . . . وما أقصر زمن الفرح . . . نظرت هند هانم إلى ابنتها والدماء ـ لا تزال ـ تلطخ ملابسها والألم يعصر قلبها ، والحزن يكسو وجهها . . .

ولفّت الوحدة جنبات القصر وكأنها مشابك حديد تضغط على أفكار الأم بعد رحيل إبنها . . . وأيقظها من بكائها التفكير في الجثة الملقاة تحت الأشجار . . . وهمت بان تصرخ مستنجدة . . . غير أن حياءها غلب عليها . . . واتجهت إلى زوجها وهو في شبه غيبوبة وقد ارتسمت على وجهه علامات الموت وكأنها تعلن كمده وهمه وقلة حيلته . . .

واستمع إليها وهي ترتجف من شدة البكاء . . . « يا رجلي . . . ويا بصيرتي . . . ويا ملاذي وقت شدتي . . . ألا ترى أن المصيبة أكبر من أن أتحملها وحدي !!! لا . . إن المصائب تضافرت علي ، واوقعتني في حيرة من أمري . . . فذاك الذي فارق الحياة جسداً . . . وابني الذي فارق قلبي روحاً . . . وابنتي التي فارقت الحياة طيشاً . . . ماذا أفعل ؟؟ كيف اتصرف ؟؟ . . . رباه . . . إنني وحيدة . . وزوجي مريض مقعد . . . لا يستطيع الحركة . . . ولا يقدر على الكلام . . . وأهلي وعشيرتي لا

يريدون قربي . . وقد قطعوا كل صلة بي وبزوجي وأولادي . . . إلى من ألجأ ؟؟ من يقف بجانبي ويمد يد المساعدة لبائسة مثلي ؟؟؟

وانهارت . . . وبين صحو ونوم سمعت طرقاً شديداً على الباب . . . ففزعت . . وقامت تهرول لترى من الطارق . . .

وقف أمامها ضابط وعسكريان . . . تكلم الأول في أدب واحترام : ـ

ـ سيدتي . . . أنا الملازم « مراد » . . . لقد بلّغنا شخص يدعى « جودت سري » وهو أحد الخدم لديكم عن وجود قتيل في الحديقة المحيطة بالقصر . . . وقد حضرنا معه وتحققنا من الجثة . . . ووجدنا القتيل من خدمكم أيضاً ، وأنه قد قتل بآلة حادة وجدت بجانبه ملقاة . . .

كانت هند هانم تستمع إلى كلام الضابط وعلى وجهها علت صفرة الأموات وكأن كلامه يأتيها من مكان بعيد . . . بينما استمر مراد أفندي في الكلام بعد أن تفحص الغرفة بعينين مدربتين

ـ عفواً سيدتي . . . أين طاهر أفندي ؟؟

فأطرقت ملياً . . . ثم طلبت منه أن يتبعها دون ان تنبس شفتاها مخافة أن يفضحها صوتها المبحوح . . .

وهناك في غرفة أخرى . . . رقد صاحب القصر وسيّده وهو يعاني من سكرات الموت . . .

اعتذر مراد افندي للسيدة . . . وتمنى له الشفاء العاجل . . .

ثم بادرها بسؤال زلزل كيانها . . .

ـ وأين السيد نديم . . . ابن طاهر افندي ؟؟

ـ (في هدوء وبرود وكأن الكلمات تشد من فمها شداً) إنه متغيب عن البيت منـذ فتـرة . . . ولعله ذهب إلى زيـارة أخـوالـه في قبيلة الصفا . . . هناك . . في البادية . . . .

ـ هل قلت انه متغيب . . . (فيما بينه وبين نفسه . . . كيف استطاع الإفلات من المراقبة . .) .

ـ نعم . . نعم !!!

ـ هل دخل أحد غريب هذا القصر ؟؟

ـ لا أدري . . .

ـ هل تشكّين في أحد من الخدم أو الحراس أو غيرهم ؟؟؟

ـ لا . . .

ـ هل تتهمين أحداً في قتل ذلك الشاب ؟؟

ـ لا أتهم أحداً . . .

ـ هل تعرفين سبباً أو دافعاً للقتل ؟؟؟

ـ لا . . .

واستأذن الضابط والعسكريان من خلفه في الخروج . . . بعد أن حياها في لطف ، وكرر تمنياته لزوجها بالشفاء . . . غير أنه التفت إليها في حدّة وهو يقول . . .

ـ سنقوم بحمل الجثة ودفنها . . . . وسنأخذ معنا تلك الآلة أداة القتل لفحصها . . . وفي الصباح سنعود لمعاينة موقع الحادثة . . . فلا تسمحوا لأحد أن يقترب منه . . .

* * *

وتنفست هند هانم الصعداء عندما سمعت الباب يغلق من خلفهم

وهرعت إلى غرفة ابنتها تطلب منها بشدة وحزم عدم الخروج منها موضحة الموقف أمامها . . . « ان الشرطة ستحضر غداً . . . هل تفهمين !!! ولو رأوا الجرح على وجهك فقد ينفضح أمرك وينكشف سر غياب أخيك ، وربما يتوصلون إلى معرفة الحقيقة . . . » أطرقت وجدان برأسها إلى الأرض وقد كساها خجل ، واعتراها ذل وتمنت لو أنها ماتت لحظتئذٍ . . . وتأكد لها أنها ستحمل عارها معها ، وعرفت من نظرات أمها أنها ستجرجر ذكرياتها المؤلمة طيلة حياتها . . .

***

وتحسست هند هانم الورقة التي دسها نديم في يدها وهو يغيب عن ناظريها فوجدتها محشوة في صدرها . . .

وثارت في نفسها الهواجس . . . وتلاطمت في رأسها الأفكار وهي تحاول معرفة سر تلك الرسالة . . . والعلاقة التي تربط إبنها بذلك الشخص الذي عرف عنه أنه من الثوار الوطنيين . . . وامضت ليلتها تتقلب على فراش من نار . . . وكلما ازداد الظلام انتشاراً . . . ترسّبت الكآبة في نفسها . . . وبدأ الخوف يتملك أعصابها بعد أن سكنت حركة الكون . . . وأخذت الحوادث تتراقص أمام عينيها . . . وعجبت لهذه الأقدار التي أخذت تمتحن صبرها وقوة احتمالها . . . فكم من عزيز يهون . . . وكم من غال يرخص في هذه الدنيا التي لا أمان لها . . . فلا الجاه ينفع ، ولا المال يدوم !!! وكم تمنت في هذه اللحظة أن يكون والدها على قيد الحياة يساعدها في محنتها ، وكم رغبت أن ترى أهلها أمامها فترتمي على صدر خالها وتقبل يده ورجله ، وتحتضن أخاها زيد . . ذلك الشهم الأبي الذي مانع في زواجها من رجل تركي ووقف أمام أبيه محتجاً ومن

خلفه وقفت كل العشيرة ترفض صهر ذلك الرجل الغـريب عنهم وعن انسابهم وعاداتهم . . .

* * *

فتأوهت في حزن . . . وفكرت في ابنها ، وذلك المصير المجهـول الذي مشى إليه برجليه . . .
« أين أنت يا كبدي ويا قطعة من قلبي ؟؟؟ أتبكي عليك العين أم يدمي لك الفؤاد ؟؟ كيف سأعيش بعدك أحمل همي واستر عار اختك . . وأخفي سر المصيبة التي حلت بك ؟؟؟ » .

وقبضت على ورقة « جـابر بن ضـاحي » بشدة وهي تتـأوه . . . « تُرى . . . ما الذي يربطك بذاك الرجل ؟؟؟ ومـا هي العلاقـة بينك وبينه ؟؟ » . وشعرت بوخزة حادة في صدرها عندما خطر لها أن ابنها يعمل معه ويشارك في الجمعية الوطنية . . . وباتت تصدق حدسها عندما تذكرت كثرة غيابه عن البيت ، وسهراته خارجه . . . وإطراقه الشديد . . . وهمه وانشغاله في الأيام الأخيرة . . .وصراخه واحتجاجه دوماً

* * *

وسمعت شهقة حادة . . . ما لـبث أن اعقبها سقوط جسم ثقيل على الارض . . فهرعت الى حيث يرقد زوجها . . فوجدته منكبـاً على الارض . . . وعندما قلبت جسمه . . كان وجهـه مبيضاً . . . وعينـاه مفتوحتين . . . كان قد فارق الحياة .

١٢

عندما أخـذت قدمـا نديم تغـوص في رمال الصحـراء ، وتلهب شمسهـا جسـده . . . بـدأ يتـردد في نفســه صـدى قــوي . . . « الى أين ؟؟؟ » .

لم يعرف طريقه . . ولم يدر أين سيقوده مستقبله المجهول . . . لم يتعود من قبل رمال الصحراء وغموضها . . . ولم يـألف وحشة الجبـال وسوادها . . . فتملك الخوف قلبه . . والهـواجس رأسه . . . ونـظر في الأفق البعيد ، فلم ير إلا فضاءاً واسعاً ممتداً لا يعرف له نهاية . . . وأحس بعطش شديد وخيل إليه أنه رأى ماءاً . . . وشعر بحرقة جلده الأبيض الناعم . . فتأكد له أنه غريب نكرة وسط هذه الفيافي والوديان . . فجمع شتات نفسه وصاح بصوت عال . . . « أنا منك . . . وأنت مني . . لا ذنب لي إن كـانت لي بشـرة بيضـاء أو عيـون زرقـاء . . سـأكـون ابن الصحـراء . . . الإبن البار . . . » وركـع على ركبتيـه . . وأخذ يقبـل الارض ويحث التراب على رأسه وكأنه يستنشق عبيره لأول مرة . . . ودبت في أوصاله الحيوية والنشاط . . . واكتسب شجاعة وقوة . . . وكلما أوغل

في مسيرته واحس بلهيب الشمس . . ازداد عناداً وإصراراً . . .

***

واتكأ على صخرة كبيرة بعد أن روى عطشه من الماء الذي وجده عند مضارب إحدى القرى . . .

وأخذته سنة من نوم خفيف عندما هبت رياح (العصارى) الباردة . . . وبدأت أفكاره تتزاحم على رأسه قوية صارخة جبارة . . .

« أين أنا ؟؟ وأين أبي وأمي واختي ؟؟ هل هذه هي النهاية ؟؟ وكيف تكون ؟؟ بل كيف أتقبلها ؟؟ هل ضاع كل شيء في حياتي ؟؟ هل ضاع مستقبلي ؟؟ وكيف ارتضي لنفسي هذا المصير بعد أن سلكت الطريق الصحيح واخذت أخطو أولى الخطوات في سبيل بناء مستقبل مشرق ؟؟ يا رب . . هذه حكمتك . . . وهذا قضاؤك . . فأنت تعلم علم اليقين ما يدور داخل سريرتي . . . وإخلاصي لقضيتي . . . . وتعلم أني أُحب بلدي حباً يجعلني أضحي بنفسي في سبيله وفي سبيل حريته . . . فساعدني . . ساعدني على أن اجتاز هذه المحنة ، واتخلص من هذا العذاب النفسي . . . » .

وقطع تفكيره همس . . . ما لبث أن تحقق منه فإذا هو حديث يخترق أذنيه كالصاعقة . . .

ــ انظر يا ذبيان !!! من ترى ؟؟؟ . !!!!

ــ كأني أرى سلمى . . . الصبية الجميلة التي يتمناها كل فتى من قبيلتها وكل شجاع من القبائل الأخرى . . . الفتاة الحصيفة الأريبة . . . زينة بنات حيها . . وفخر أبيها شيخ قبيلة « ساهدة » . . .

ــ وماذا أيضاً ؟؟؟

— ماذا تقصد يا سارح ؟؟؟

— ألا تفهم يا لكع ؟؟؟

— هل تعني . . ؟؟!!

— نعم . . فهذه هي الفرصة التي تمنيتها من زمن طويل . . طويل جداً . . . فالثأر الذي بيننا وبين قبيلتها لا يزال يغلي في دمي وينادي . . . هيا . . . هيا !!!

— ولكن يا سارح . . . إنها وحدها . . . ترعى الغنم . . ليس معها أو حولها رجال !!!

— وهل هناك أثمن من هذه الفرصة ؟؟ . . نقترب منها ونحن ملثمون . . . نبادلها الكلام . . . إلى أن نتمكن منها و . . . ونغدر بها . . . ثم نكشف عن وجهينا . . . ونعرفها على شخصيتينا . . . ونمضي راجعين بعد أن يكون العار قد لطخها . . ومرّغ سمعة قبيلتها الوحل . . وهيهات يا شيخ قبيلة ساهدة أن ترفع رأسك بعد اليوم وأن تشمخ بانفك علينا . . فقد دُسنا على شرف ابنتك . . .

* * *

كان نديم يسمع ذلك الحديث الذي دار بين الأثنين وهما خلف الصخرة التي استراح تحتها .. والدم يغلي في عروقه .. وبحركة بطيئة .. وخفة ورشاقة مدّ عنقه .. فأبصر الفتاة المقصودة على مقربة من الجهة الأخرى للصخرة وأمامها غنم ترعاهم .. وما هي إلا هنيهة حتى أبصر الغادريْن يقفزان أمامها .. وقد همّ أحدهما بمسكها .. فدفعته بشدة ، بينما حاول الثاني أن يكشف البرقع عن وجهها ، فيما تمالك الأول نفسه واندفع اليها بشدة . . فصاحت متأوهة صيحة اهتز لها قلب نديم

(وا ابتاه) ورددت الفتاة صيحتها فوقعت في أذنيه موقع صيحة أخته . . . فلم ير نفسه إلا وهو قابض على عنق أقرب واحد منهما قبضة كادت تزهق روحه . . . وركل الثاني ركلة أسفل بطنه أوقعته صريع الألم . . . وشدد قبضته على عنق الأول حتى جحظت عيناه . . . فصاحت الفتاة في وجه نديم . . . « لا . . . لا يا أخ العرب لا تقضي عليه . . ولا تلطخ يدك بدمه . . إنه نذل ، خسيء . . لا يستحق سوى أن تبصق على وجهه . . إنه واحد من غوغاء قبيلة أم الرمان . . . » .

سمع نديم كلام الفتاة . فوقف مشدوهاً لشجاعتها وجرأتها على المقاومة . . . بينما قام الغادران يجريان في خوف وهلع ، وكلما خطا الواحد منهما خطوتين تعثر ووقع . . حتى اختفيا عن ناظري الفتاة ونديم . . .

نظرت سلمى الى نديم وعيناها تفيض شكراً . . ونظر نديم إلى الفتاة وعيناه مليئة بالاعجاب والاكبار لصبية تقاوم اثنين امتلأ قلبهما حقداً ، وعماهما حب الثأر عن الهداية والرشاد . . . وترددت صيحتها في رأسه . . « لا يا أخ العرب . . . . » .

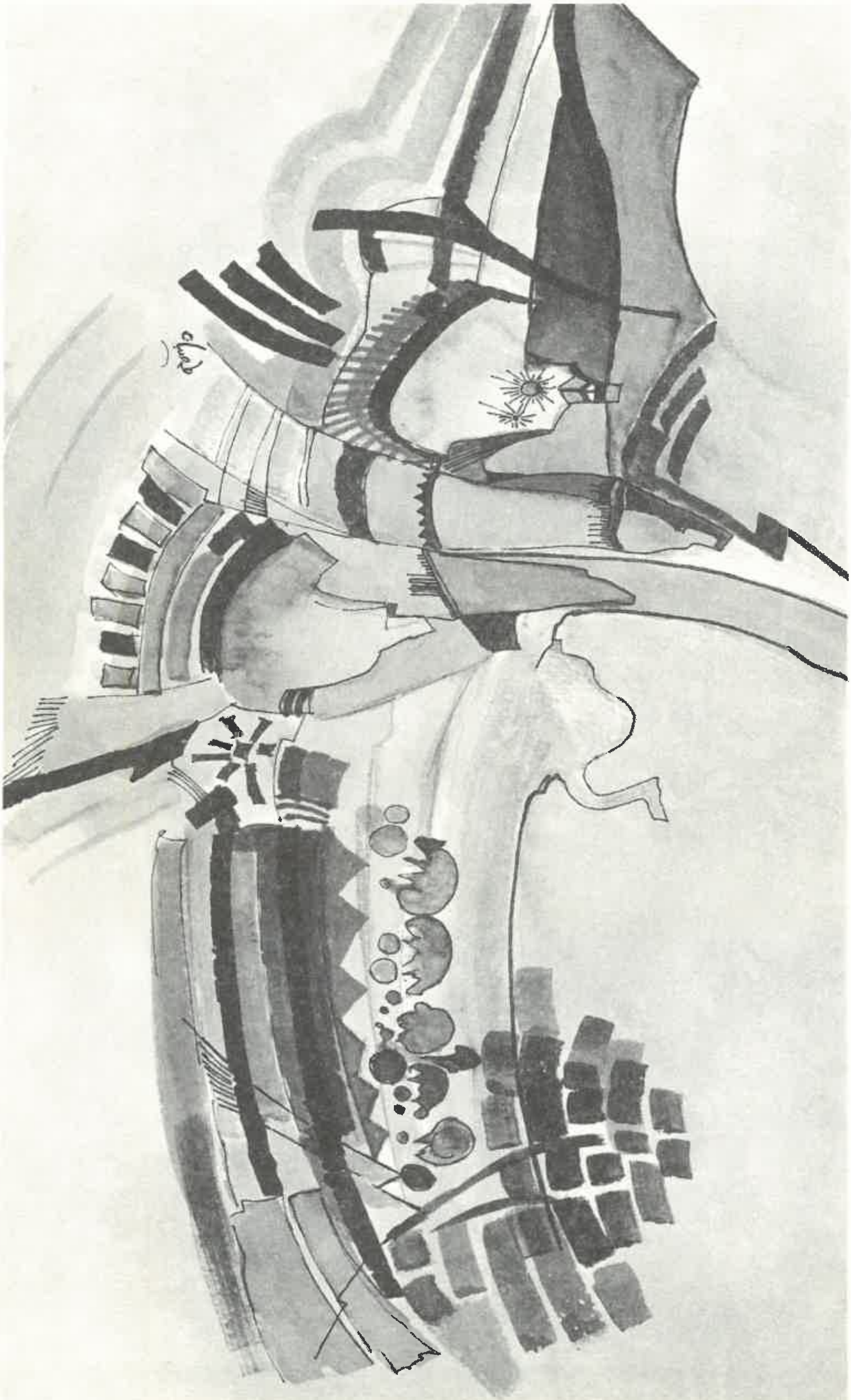
***

قالت سلمى في صوت ممزوج بالدلال والحياء . . .

– هلا تفضلت معي إلى مضارب أبي . . . فلي معك حديثاً . . ولا بد أن يكون لأبي معك شأناً . . فأنا مدينة لك بالجميل . . ولا يكفي مني شكر أو ثناء . . .

– شكراً يا اختاه . . ان ما قمت به لهو الواجب . . .

ومشى نديم خلف الفتاة . . والأغنام تجري وتقفز من حوله . . . وفي نفسه هاجس قوي . . « يا لها من بداية . . والله وحده يعلم كيف ستكون النهاية »



١٣

. . . وعندما دلفت سلمى إلى مضارب قبيلتها وعلى ملامح وجهها رعب وخوف ، وفي ملابسها وبرقعها تمزيق وتقطيع . . ومن خلفها مشى نديم في حيرة وارتباك . . . اشرأبت أعناق القوم الى ذلك الفتى الغريب ، وتركزت المحاجر على لون بشرته البيضاء وآثار النعمة والرفاهية عليه ، وأثارت زرقة عينيه ثائرة القوم . . . . فهموا به وأمسكوا بتلابيبه وكادوا أن يوقعوه أرضاً لولا لفتة سريعة من الفتاة إلى أبيها الذي خطا خطوات ثقيلة ـ وهامته مرفوعة ـ إلى حيث التجمع الذي أحدث تلك الضجة . . .

وعندما بدأت سلمى تروي قصتها مع الأعرابيينَّ اللَّذَين داهماها وكيف أن هذا الشباب دافع عن عرضها ، وأنقذ شرفها ، وحفظ سمعة أبيها ، وصان مكانة قبيلتها . . . هدأت نظرات الجميع ، وتحول غضبهم إلى تساؤ ل : « من يكون هذا الفتى ؟؟؟ ومن أين جاء ؟؟؟ ولماذا حضر إلى البادية ؟؟؟ ولماذا عرض نفسه للخطر في سبيل إنقاذ فتاتهم من أيدي ذينك الشقيين ؟؟؟ » .

ولما كثر اللغط . . . تكلم الشيخ « مفرح بن مطلق بن جمعان » شيخ قبيلة ساهدة ، ووالد الفتاة . . . وطلب من الجميع التريث في الأمر

حتى تسكن روعة الشاب وتهدأ نفسه . . . ومن ثم يتحدث معه ، ويكشف سره ، ويعلنه للحاضرين . . .

***

قال الشيخ مفرح للفتى .....

ـ يا بني . . لا بد أنك غريب عن هذه الديار فنحن لا نعرفك ، ولكن ما فعلته مع بنيتي ، ودفاعك عنها ، وتعريض نفسك للموت من أجل حمايتها . . يفرض علينا الاعتراف لك انا وجميع من في هذه القبيلة وروافدها بالجميل والعرفان . . . (وأطرق قليلاً . .) فإن كنت تقصد مالاً أعطيناك . . . وإن رغبت في غنم أو إبل وهبناك . . .

أجاب نديم (ورأسه مطرقة إلى الأرض . . . وفي صوته رنة حزن . . وقد ملأت روحه حماسة رجال القبيلة ونصرتها لفتاتهم عندما دخلت عليهم مذعورة . . .) ـ

ـ يا شيخ العرب . . ويا حامي حمى القبيلة . . عافاك الله ورعاك ، وأكثر من خيركم وزاد من فضله ونعمه عليكم . . ما رمت مالاً ولا إبلاً ، وما طمعت في غير الفضل والإحسان . . وإن ما قمت به من دفاع عن شرف ابنتك لهو واجب الأخ العربي لأخته . . . ووالله لقد وضعت حياتي فداءاً لها . . ولو أن روحي كانت مطلب ذينك الغادرين لضحيت بها في سبيلها . . . » .

استمع الشيخ مفرح إلى كل كلمة قالها نديم وتأمل فيها . . . فإذا هي كلمات صادقة تصدر من فتى ظُن به الظنون . . أعجمي اللسان ، رومي المنبت ، ـ واعجب بفصاحته وبلاغته . . فازدادت حيرته ،

واضطربت أفكاره . . فهب واقفاً والرمح في يديه وقال بصوت عال : -

- وحق إله رفع السماء بغير عمد . . إلاّ اخبرتني من أنت . . ومن أين جئت ؟؟ وما هو سرك ؟؟. أقطع يدي إذا لم يكن وراء تلك العينين الزرقاوين أمر تخفيه . . .

بهت نديم لفراسة العربي الواقف أمامه . . ونظر في عينيه فرأى العزم والتصميم مرتسمان على وجهه . . . فقال في صوت هادىء : -

- وماذا يفيدك يا شيخ مفرح أن تعرف من أنا !!! وماذا تجنيه إن أخبرتك عن أمري وكشفت لك سري ؟؟؟. . . ألا يكفي أن تقبل بي عابر سبيل ساقتني الأقدار إلى هذا المكان . . . ألا ترضى بي ضيفاً دخل في قراكم وناشدكم الحِمَىٰ . . . (صمت قصير . .) ولكن . . . ما دمت قد أقسمت . . فسأقول لك بعضاً من خبري ، وأرجو ألا ترغمني على المزيد . . . كما أن لي مطلباً واحداً . . .

- قل . . . وسنحقق رغبتك . . .

- ان تُبقي على أمري سراً بيني وبينك !!

إنتحى به الشيخ مفرح ركنا قصيا ، وتحفز لسماع كل كلمة .. ثم جلس القرفصاء بعد أن رمى الرمح جانباً . . .

بينما اضطرب عقل نديم واشتد خفقان قلبه . . . . « ماذا أقول له . . . ومن أين أبدأ ؟؟؟. . . وكيف انتهي ؟؟ هل أقول له أني هارب ، مطلوب من العدالة لجريمة قتل ارتكبتها . . . هل أفشي سري وافضح اختي وعائلتها وهذه الأعناق تطاولت ، والرماح تحفزت ، والموت كاد أن يكون قاب قوسين مني عندما رأوا فتاتهم في حالة ذعر . . . أواه يا إلهي . . لماذا تلاحقني الأقدار . . وتزلزل كياني المصائب ؟؟؟ » . .

وهزه صوت الشيخ مفرح يستحثه على الكلام . . .

- إن اسمي فارساً . . فارس ابن شوكت افندي . . . ابي ينحدر من سلالة تركية . . . غير أن أمي عربية . . .
- تعني انها من العرب (صاح الشيخ مفرح بعد ان قاطعه في الكلام) من أي القبائل . . قل . . افصح . . لا بد أنها تنتسب إلى أشهرها شجاعة ، وافصحها لساناً . . . وقد انجبت ابناً يضاهيها . . .
- يمكن أن تقول ذلك . . . ولكني لا اعرف من أي القبائل هي . . . ولا أعرف أخوالي . . . وقد تولّد في نفسي شعور منذ الصغر بأني لا أرغب في الانتساب إلى الأتراك، كما أني لا أحب سلوكهم ولا أميل إلى طباعهم .. فكرهت البقاء في المدينة .. (صمت قصير).. إن الدماء العربية تجري في عروقي ، وأريد أن أتثبت من ذلك . . لهذا فقد قررت أن أضرب في البادية أبحث عن قبيلة أمي وأتعرف على أهلها وربعها . . .
- وأيـــن أمك الآن ؟؟؟ ولماذا لا ترشدك إلى قبيـــلتها .. وتخبرك عن نسبها ؟؟ . .
- أمي . . . قضت نحبها وأنا بعد طفلٌ . . . ولم يشأ أبي ان يعرفني على أهلها . . . وأبعدني عن كل ما يقربني إليها . . .

أطرق الشيخ مفرح ملياً . . . ثم رفع رأسه وفي عينيه بريق ، وقد عقد حاجبيه . . . وزم شفتيه ، وما لبث أن قال : ـ

- اسمع يا بني . . . إن لي في هذه الدنيا إبنة واحدة ، ولم يرزقني الله جل وعلى ولداً ذكراً ، وقد قررت أن أرد لك الجميل بعد أن تقربت منا ونزلت في قلبي وحللت فيه شهماً نبيلاً . . . أريد أن أتخذ منك ولداً . . . فأنا اليوم والدك . . وأنت ابني . . . .

لم يمهل الشيخ مفرح الفتى الذي عقدت الدهشة لسانه . . وقام إلى

القوم وصاح فيهم . . .

ــ ألا فليعلم الحاضر الغائب . . أن هذا الفتى جاء يبحث عن أخواله العرب وقد دخل حمانا . . . وحيث أني مدين له بالعرفان والجميل فاني قد تبنّيت هذا الشاب (واسمه فارس) وقد اتخذته ولداً . . . (وتوقف قليلاً) . . . ثم نادى سلمى . . ونادى فارساً واخرج خنجراً من جرابه . . وامسك بذراع كل منهما وغرس فيهما الخنجر ، فسالت دماؤهما ، فالصق ذراعها بذراعه حتى اختلطت الدماء . . وهو يقول . . اشهدوا على أنهما نعم الابن والإبنة . . .

وقام الحاضرون يباركون ذلك التآخي . . ويحمدون للشيخ مفرح حكمته . . وتبصره .

***

١٤

لم تتقاعس الشرطة يوماً واحداً ، ولم تترك قصر السيد طاهر أفندي وحدائقه الغناء دون مراقبة وتفتيش كل ركن وزاوية علها تهتدي إلى دليل مادي آخر غير تلك البصمات التي وجدت على المعول . . بصمات نديم ابن صاحب القصر .

وجمع رجال الأمن كل ما توفر لديهم من معلومات . . .

كما قدم القسم الخاص المكلف بمراقبة أفراد الجمعية الوطنية تقريراً مفصلاً عن تحركاته واجتماعاته . . .

وجاء موت «أبيه طاهر أفندي» عوناً على سرعة تحديد الاتهام ضده وإصدار الأوامر بالقبض عليه بعد أن كانوا يحسبون لسلطة أبيه وعلاقاته بالوالي حساباً كبيراً .

انتظر الملازم مراد أفندي انقضاء أيام مراسيم العزاء . . ومشى بخطى ثابتة ، ووجه عبوس ، وإصرار عجيب معقوداً بين عينيه . . وخاطب في جفوة وقسوة الأرملة التي وقفت أمامه في ذل وانكسار : ـ

ـ لقد انتظرنا طويلاً ، ونفذ صبرنا . . ونريد منك الآن أن تخبرينا اين ابنك . . نديم ؟؟؟

- لقد سبق وإن قلت لك إني لا أعرف اين هو . . ويعلم الله ان عيني تتحرق شوقاً اليه ، وقلبي يتفطّر على غيابه . . . .
- خانم . . . إنني آسف أن أقول لك إن الأدلة التي تجمعت لدينا تثبت أن ابنك هو القاتل . . . (وسمع الضابط صوت وقوع جسم على الارض إذ كان موليـاً ظهره وهـو واقف أمام النـافذة المطلة على الحديقة . . .) وهرع إلى السيدة التي وقعت مغشياً عليها . . وحاول إيقاظها ، وبعد أن افاقت قليلاً . . اكمل حديثه : -
- أرجـو لـك الصحـة والعـافيــة . . (وبسـرعــة . . . استمـر في الحديث . . .) ان ابنك مشترك أيضاً مع مجموعة من المتمردين على الباب العالي ، العصاة على أوامر سيدنا الوالي . . وهذه جريمة أخرى عقابها - كما تعرفين الشنق موتاً - . ومن سوء حظه أن سيدنا الحاكم الجديد لا يرحم من يرتكب مثل تلك الخيانة العظمى . . .
- (وبعد فترة صمت قصيرة . . ألقى مراد افندي في وجه السيدة هند هانم قنبلة ثالثة . . كان لها وقع أشد ألماً على نفسها . .) إن لدي امراً بالقبض عليه حياً أو ميتاً (ثم ألقى آخر سهم في جعبته) . كما لدي امراً آخر بحجز جميع أمواله ومصادرة هذا القصر وما فيه وأطلب منكم- باسم مولانا - مغادرته ... وتقـديـراً لـظروفكم سأمهلكم ثلاثة أيام تجمعون فيها حوائجكم الشخصية وتسـرحون فيها خدمكم وبعدها أعود ثانية لتسلم القصر . . .

وحياها في اقتضاب . . . وتهيأ لـلانصراف . . . وقبـل مغادرتـه التفت إليها قائلاً :

- أرجو ان تخبروني قبل رحيلكم عن الوجهة التي تقصدونها ، والعنوان الـذي ستتواجـدون فيه . . فـلا زلتم تحت المراقبـة حتى يتم إلقاء

القبض على المجرم الهارب .

نظرت هند خانم إلى وجه الضابط ولسانها معقود ، وبصرها زائغ . . وهي لا تدري ماذا تفعل . . ولا تعرف ماذا سيكون مصيرها . . . فأسلمت أمرها إلى الله . . . وهتفت في سرها . . . « رب . . أنت القوي على كل قوي . . . انصر المظلوم . . . وخذ حقي من الظالم . . . فأنا لا أملك لنفسي حيلة . . . رب . . . ساعدني ، والهمني طريقي وصوابي . . . » وغلبها البكاء . . .

* * *

قبل أن تغادر هند هانم القصر وتودعه بنظرة أمل . . . قررت أن تقوم بزيارة « جابر بن ضاحي » وتسليمه رسالة ابنها رغم ما في ذلك من مخاطرة قد تضرّ بها أو تلحق الأذى بابنها . . .

عندما خطت خارج القصر شاهدت رجلاً واقفاً بالقرب من البوابة . . . ما لبثت أن أحست به يتبعها . . . استطاعت بمشقة الإفلات من مراقبته بعد أن موهت عليه مراراً حتى استقر بها نهاية المطاف إلى الدارة المقصودة . . . واتجهت إلى حيث يتجمع النساء . . . وسألت عن زوجة جابر . . . وعندما قدمت نفسها إليها ، أخذتها هذه جنباً وهمست في أذنها . . . « . . . من الخير لك أن تبتعدي عن هذه الدارة . . فهي مراقبة ليل نهار . . . ويبدو أنك امرأة صالحة ، ولا اريدك ان تتورطي معنا . . . نحن نعيش اياماً ضنكة ، ونقضي ساعات أحلك من سواد الليل بعد ان اختفى جابر منذ شهرين أو أكثر ولا نعلم عنه أو عن رفقائه شيئاً . . . وأرجو ألا يكون قد أصاب ابنك مكروه كما أصاب الغالبية من الشباب . . . فلقد جاءتني امهات ثكلن في أولادهن . . . ورأيت أخريات

أصابهن الهلع والخوف اثر التعذيب الذي وقع على فلذات أكبادهن . . . (وتابعت وهي تلهث . .) إن عيون الشرطة مفتوحة ومنتشرة في كل مكان يتطرق إليه الشك بأنه مجمع لأعضاء الجمعية . . . والويل ثم الويل لمن يشتبه فيهم أو يقع في أيديهم . . . » .

* * *

سقطت في قرارة نفس الأرملة المتشردة نقطة سوداء كما تسقط حصاة في قعر بئر . . وهي تستمع إلى المرأة الواقفة أمامها وكأنها تمثال أصم ، وكأن الصوت يأتيها من عالم غريب . . . حتى إذا ما وعت لم تصدق ما سمعت . . . وكتمت آهة فضحت ما في نفسها من ألم وما تعانيه من عذاب إشفاقاً على مصير ابنها الذي لا تدري إن كان حياً أو ميتاً .

وأخذت الأفكار تتجاذبها والأمواج تلاطمها وهي تمشي دون هدف أو غاية . . . . « . . . ترى أين أنت الآن يا ولدي . . . إن كنت مختبئاً فابق في مكانك . . ولا يأخذك حماس الشباب وفورة الوطنية . . فالموت مترصد لك ، والهلاك والدمار ينتظراني واختك . . . آه يا ولدي . . . لا تعد إلينا الآن . . . لا تعد ان كنت حياً . . . أما إذا سبق أجلك قدري . . . فالله يتغشاك برحمته ، ويلهمني الصبر والحكمة حتى أصارع وحدي هذا الخصم ، وحتى أقاوم هذا التيار الجارف الذي أخذ يلفني ويفقدني توازني . . .

أبوك يا نديم قد رحل عن هذه الدنيا وتركني واختك وحيدتين . . وهذه الجروح التي لم تندمل . . والطعنة التي في صدري . . . وقسوة الزمان ، وشماتة الأعداء . . . وجبروت السلطة . . . كل هذه عوامل تضافرت عليّ . . . فإلى من الجأ ؟؟؟ واين اتجه ؟؟؟

من يقبل بأم مكلومة . . . ابنها مطارد . . . وابنتها تحمل آثار ذلها ؟؟ من يستضيف أسرة مات عائلها وأُلقي بها في قارعة الطريق دون رحمة أو شفقة ؟؟

آه يا بني . . . لا أستطيع أن اتمنى الموت كي يريحني . . . عليّ أن أسهر على تضميد جراح اختك ومواساتها في محنتها . . . وقدر عليّ أن انتظر عودتك ورجوعك مرفوع الرأس مكرماً معززاً . . . فاللهم عوناً . . . اللهم ارحمني . . . اللهم شد من أزري . . . » .

وحملت متاعها . . وجرجرت في يدها ابنتها بعد أن تبين لها ألاّ ملجأ ولا ملاذ لها سوى أن تعود بانكسار وخنوع إلى عشيرتها . . وأن تحمل ذلها وعارها إلى أهلها . . .

وقرأت في عيني وجدان علامات المعارضة وروح التمرد ـ وإن كانت لم تجرأ ببنت شفة ـ إلا أن نظرة صارمة من عين أمها جعلتها تسير أمامها وهي في شبه غيبوبة عن العالم المحيط بها والأحداث التي قصمت ظهر أمها . . . وبدلت سعادتها هي إلى شقاء ، وشبابها إلى شيخوخة . . .

***

عندما حطت المرأتان رحالها ، وقد أخذ منها عناء السفر ، والتعب ، والإجهاد ، والحيرة ، والخوف . . . . جمالها ورونقها . . . تجمع افراد القبيلة من حولها وقد حلت الرأفة وكرم الضيافة محل الغضب والجحود . . . .

وراحت الأم تقص في اقتضاب شديد على خالها وأخيها الأحداث التي أطاحت بالأسرة ، والمصائب التي توالت عليها . . . ولكن لم يتمالك أخوها زيد نفسه بعد أن حاول كتمان غضب السنين الذي حمله بين

جنبيه منذ زواجها على الرجل الغريب . . . وقال يذكرها بالماضي . .

ـ سامح الله أبي . . . لقد وقَفتُ معارضاً رغبته ، ورفضتُ قراره ، ولكني كنت لا أملك من الأمر شيئاً وأنا ذلك الصبي الأعزل . . . وها نحن اليوم ندفع ثمن غلطته تشرداً وخزياً ، كنا أسياداً وغدونا عبيداً ، كنا سادة قومنا واليوم تطارد العدالة ولداً لنا بتهمة القتل ، وتهمة الخيانة . . . .

وبحركة من يده طلب الخال من زيد أن يكف عن الكلام ، وقد اتخذ مجلسه وسط العائلة والشيب يكلل فوديه . . . وتكلم بصوت هادىء رزين . . .

ـ لا عليك يا بنيتي . . . فأنت لا تتحملين وزر أبيك . . . كما أن الأقدار لعبت دورها في تحطيم أسرتك وهدم بيتك وتشريدك وابنتك . . . قِرِّي عيناً . . وطيبي نفساً . . وتجملي بالصبر . . . والدار هنا دارك ، والأرض أرضك . . ونحن لا زلنا أهلك وعشيرتك ، وتأكدي أنه لن يصيبك ضيم بعد اليوم . . وقد أحسنت صنعاً أن حضرت وابنتك . . . وعليك أن تنسي . . وألا تفكري في امسك بقدر ما تنظرين إلى غدك . . . ويجب أن تعوّدي نفسك على حياة الكفاف ، وأن تروضي الصبية على طباع البداوة وخشونة العيش فإني أرى فيها خنوعاً وليناً . . . والمولى يشملنا وإياكم بكرمه . . . وكان الله عوناً وسنداً لابنك حيثما حل وأينما ارتحل . . »

وقامت الأم وابنتها تندبان حظهما ، وتلملمان أذيالهما . . .

وانكفأت هند هانم تمرغ خدها التراب وتحثه على رأسها . . . ووجدان تنظر إليها في هلع . . .

* * *

وقفل الجندي المكلف بمراقبتهما عائداً لينهي الى الملازم مراد أفندي تقريره معلناً في فرح مقر إقامتهما الجديد بين قبيلة الصفا . . .

وهمس الضابط فيما بينه وبين نفسه : « لقد صدقت ظنوني . . . فهناك في القرية اختبأ نديم . . . وها هي أمه وأخته تتبعانه وتنضمان إليه . . . وغداً سألقي القبض عليه ، وأنال رضى الحاكم الوالي الجديد . . . »

١٥

بالعزيمة والإصرار ،،، وقوة الإرادة ،، والتحدي ،، والصراع النفسي . . . استطاع نديم أن يستقبل ذلك النوع الغريب من الحياة الذي اختاره لنفسه . . . وأن يتقبل شظف العيش وخشونة الطبع الذي صمم أن يسير عليه . . .

اتخذ من التراب بساطاً ، ومن الحجارة وسائد . . . وأكثر من شرب حليب الماعز ولبن الإبل علهما يرويان ظمأه ويطفآن نار غله . . . واستطيب الثريد والجرش . . . وتعود أكل التمر صباح مساء ، وتعلم كيف يذبح الشاة ويسلخها ، وسار على نهج القوم ، وحذا حذوهم ، وتطبع بطباعهم . . . حتى إذا غمس رأسه في قصعة اللبن صدرت من سلمى ضحكة لم تطق كتمانها . . . وقالت في دلال . . .

ـ أوردها سعد ، وسعد مكتمل ما هكذا يا سعد تورد الإبل .

ـ ماذا تقصدين بالله عليك ؟؟؟

ـ أحسب أنك كنت ظمآناً حتى ابتل منك الشارب والأنف !!

وبحركة لا إرادية رفع نديم يده ومسح آثار اللبن التي علقت بشاربه الصغير الأصفر . . . ونظر إليها وكأن في عينيه عتاباً . وبرقة بالغة همس :

ـ اتضحكين مني أو عليّ ؟ « وسكت قليلاً .. وبنبرة فيها عتاب قال »
لعلي لا زلت غريباً بينكم .. لم اتعود على طباعكم ، ولم أحسن السير على خطاكم . . . ولا غرابة في ذلك . . . فأنت لا تعلمين أني كنت اشرب الماء في كأس من فضة ، وأنه لولا الحياء والرهبة لقام الخادم بصب الماء في فمي . . . أهلي أفسدوا طفولتي بالترف . . . وصدر شبابي بالرفاهية . . .

ـ عجباً !!! وكيف كان ذلك . . . قص علي بربك يا فارس من هذه القصص . . . فوالله لا أراك إلا عجباً . ولا أخال وراءك إلا سراً محتجباً . . .

ـ الليل هنا هادىء جميل . . . والهدوء من حولي يرخي من أعصابي المتوترة . . . وهذا القمر الفضي الذي يرسل نوره على وجهك فتعكس صفحته السمراء النقية ، شفافية روحك ، ونقاء ضميرك ، ورقة إحساسك . . . يجعلني أشعر أني أمضيت سنين ضياع من عمري ، وأن الحياة المترفة التي ولدت وعشت فيها مليئة بالزيف والخداع . . . كل شيء هناك كان يترجم إلى عالم الماديات . . . أما هنا فإني أرى نفسي وقد ولدت من جديد ، وأن روحي ازدادت صفاءاً ونقاءاً ، ... هذا الطهر الذي يحكم الطباع ، والنزاهة التي تتحكم في المعاملات ، والبساطة والطمأنينة التي يعيشها كل إنسان من حولنا ... أنت لا تحسين بالفارق لأنك لم تجربي ذلك النمط من الحياة ... احتراق الناس بعضهم بعضاً بما يدعونه ويسمونه « بالمدنيّة » ... الفرق بين العشب الذي أجلس عليه ، والأرائك المطرزة المزركشة التي تزيّن بها أركان القصر ... والتراب هنا والصخور والأحجار ، والسجاد والمخمل والحرير هناك . . . هذه

الفوارق لا تزال تثير في نفسي صراعاً مريراً . . .
أبي وثراؤه ، ومركزه الاجتماعي ، وهيبته ، والقصر ، والخدم والحشم ، وابنه الوحيد الذي أراد ان يجعل منه سليل الجاه والعز ، والصولة التركية . . . ابنه الذي وزن يوم ولادته بالذهب والماس . . . ها هو اليوم يفترش الثرى ، ويتلحف بالسماء . . . يبحث عن ذاته ، ويفتش عن ماهيته . . . تحرق الشمس أوصاله ، وتكوي الغيرة العربية كبده وأحشاءه . . .

— بخ . . بخ . . . قلت إن والدك قدم من بلاد الترك ، وأن أمك ودعت الحياة وفارقتك وأنت طفل . فمن أين تعلمت هذا السحر ؟؟ وكيف ملكت فصاحة العرب حتى صرت شاعرهم ؟؟؟

— لا . . لا يا سلمى . . لا تظلميني . . فالظلم منك أنت وقعه اليم . . . أنا احببت بلدي ، وعروبتي ، وتَتَيَّمْتُ بحب الحرف ، وشغفت بالكلمة . . . مما يزيد في حرقة قلبي هي نظرة الناس إلي . . . لا أعرف لماذا أنا في أعين الناس أعجمي ؟؟ يا للعنة هذه العينين الزرقاوين . . . وتباً لهذا الشعر الأصفر . . . قولي بحق من رفع السماء وبسط الأرض . . . كيف أثبت لنفسي ، ولك ، وللاخرين ، إنتمائي لهذه الأرض وحبي لهذا التراب ؟؟؟ كيف أبرهن على أن هذه الدماء التي تجري في عروقي . . . والأفكار التي تصطك في رأسي أنها عربية المنبت والمصب . . .

(وقامت سلمى تمسح دمعات تساقطت على وجنتيه . . . وتحسست ذقنه التي أخذت تنمو ببطء وقالت بصوت دافىء) . . . لا عليك يا أخي . . . ولا تحزن للون بشرتك أو زرقة عينيك . . . فالعربي

بطبعه ، بأصالته ، بشجاعته ، بكرمه ، بنخوته ، بإبائه وشممه ، وأنت في نظري رجل توفرت لك تلك الصفات . . . ولقد عرفت فيك ـ هذه الشهور القلائل ـ خصالاً لم تتوفر في غيرك من الفتيان . . كما سمعت من أبي أن كثيراً من شيوخ القبيلة وشجعانها يتحدثون عنك باعجاب وإكبار ، يمتدحون خصالك ، ويفخرون بك وبما رأوه منك من شهامة ونبل ، وفصاحة لسان ، وجرأة قلب ، ورجاحة عقل . . فأنت اليوم واحد منا ، بل إنك سيد قبيلة ساهدة . . وسند لأبي وساعده ، وحصن لي وملاذ . . . فلا تبتئس بعد اليوم . . . ودعني أرى ابتسامة وجهك المشرقة . . .

وهيا بنا نجمع الأغنام ، ونحتطب للقوم . . فالليلة موعد للقرى . . .

١٦

راجح ... فتى من الفتيان القلائل المشهود لهم بالجرأة والإقدام ... أبوه كان أشجع شجعان القبيلة ... عرف برجاحة عقله ، وحبه للخير ، أمره ميسور ، وسعيه دائماً مشكور .

توطدت العلاقة بين راجح وفارس ، واصبحا صديقين حميمين ... زاد من ألفتهما تقارب في السن والتقاء في الأفكار ... ما اشتكى فارس من شيء إلا وجد عند « راجح » تفسيراً وتعليلاً منطقياً ... وما سأل هذا عن أمر إلا وجد عند فارس جواباً شافياً ...

كانا يخرجان إلى البراري معاً ... يتسابقان على ظهور الخيل أو الإبل ... تعلم فارس منه فنون القتال ، والكر والفر ، والطعن والنزال ، حتى غدا ماهراً حاذقاً لجميع الحيل والأساليب ، دفعه إلى ذلك إقباله على حياة البداوة ، وارتياحه النفسي لها ، ومحاولة نسيان أمسه ، والأفكار التي ما فتئت تذكره بأهله ووالده ورفقائه في الجمعية ...

* * *

وكان فارس يتسامر مع سلمى ... سمع منها كثيراً من الأشعار

التي تحفظ الجيد منها . . . أعجب بحذقها وقدرتها على القريض . . وفتن بسعة أفقها وآمالها وأمانيها وهي التي لم تتجاوز مشارف القرية ، وكانت تستحثه ـ دوماً ـ الكلام عن المدينة ، ونسائها ، وحياتهن ، ومعيشتهن ، ولباسهن . . . وكانت تسرح بخيالها بعيداً مما يقلق فارس ويزيد في آلامه عندما تجتر ذكرياته وتعيده إلى الوراء . . . حتى إذا انفض لقاؤهما ليلة إلتقى بصديقه راجح . . . وكان يلحظ عليه سهده وإطراقه ، وينكر عليه تهربه من مواجهته والتحدث في خصوصياته . . . .

. . . . وعندما سكن الليل ، ونام القوم ، وهدأت الحركة جلسا في العراء والقمر يرسل ضوءاً خافتاً ومن حوله نجوم ساطعة متلألئة . . قال راجح : ـ

ـ أما آن لأخي فارس أن يضع ثقته في أخيه ويفتح قلبه ويزيح عن كاهله ما أرّقه ؟؟؟

ـ (رفع فارس رأسه . . وكأن صوتاً من بعيد يناديه . .) . . وكيف عرفت أني أحمل أثقالاً وأرزح تحتها ؟؟

ـ أبعد هذا الذي بيننا . . . والحب الأخوي الذي يربطنا . . . والألفة التي سادت علاقتنا . . . تريد أن يخفي عليّ أمرك ؟؟؟؟

ما صبرت طيلة هذه الشهور وأنا أراك تتأرجح بين إقدام وإحجام ، وتردد وتمنع . . . إلا لكي أزيدك ثقة ، فأنا قد توجست امراً فيك ، وتحسست سراً بين ضلوعك يسهد ليلك ويؤرق منامك !!!

ـ أصبت يا راجح . . . إن بين جوانحي سراً خطيراً ، لا . . بل قل أسراراً ، وفي رأسي أفكاراً مشتّتة تقضي مضجعي . . وإذا أردت أن أبوح بها إليك . . فاعلم أنك أول انسان يقف على حقيقة أمري ، ويغوص في اعماق أعماقي !!!! (وسكت قليلاً . . وأطرق

ملياً . . . وصدرت من صدره تأوهات وآهات . . .) .

« إنني يا راجح . . . . »

أطرق راجح رأسه وغاب في بحر لجي من الأفكار . . . فيما أحس فارس بالراحة تسري داخل نفسه والطمأنينة في قلبه ، وتنفس هواء الحرية . . . واتكأ على كومة من تراب ، بينما امتدت يده إلى عصاه يخط بها على الأرض . . .

رفع راجح رأسه قائلاً :

ـ اسمع يا فارس . . . إن أول شيء يجب أن نطمئن عليه هو مصير والدتك واختك ووالدك ، لا بد أن الشرطة قد عثرت على الجثة وهم وراء القاتل ودوافع الجريمة . . . ولا يُستبعد أن رجال الأمن قد ضيّقوا الخناق على اهلك بعد غيابك أو هروبك من البيت ، ومن يدري . . لعل الشرطة تلاحقك الآن وتبحث عنك في كل مكان !!!

ـ وهل تراني كنت غافلاً عن ذلك . . . لعل هذه اللمحة هي سرّ تعاستي ومصدر قلقي . . . واني لأخشى أن يكون قد أصاب أهلي مكروه بسببي .

ـ هل تظن أن لهذه الجمعية التي ذكرت أنها تناضل في سبيل الحرية ، وتكافح للاستقلال خطراً على مستقبلك أو حياتك ؟؟؟

ـ إذا تحققت توقعاتي ، وصدقت أحاسيسي . . . فإن التخوف الذي يصيبني من حين لآخر ليس مصدره جريمة القتل وحدها بقدر ما هو متوقع من عقوبة مقاومة الحكم التركي ، ومواجهته ، والعمل ضده للتحرر من تسلط الولاة والتخلص من حكمهم . .

وتأكد يا راجح أني ما تركت المدينة ، وخلفت ورائي أماً مكلومة ،

وأختاً مجروحة ، وأباً تتقاذفه أيدي الموت لأني أخشى مواجهة عقوبة القتـل ... بل لأني ــ ويعلـم الله ــ أحسست أن الرسالـة الوطنيـة التي وهبت نفسى لها تتطلب مني العيش والبقاء والعمل . . .

ــ دعنا يا فارس نتدبر الأمر . . . فلا بد أن نصل معاً إلى حل ، ولا بد أن أفكارك الجديدة على مفاهيمي ستخلق مني رجلاً آخر . . . هيا بنا نسري ، فالليل أوشك على الانتهاء . . . وهذه الديكة تصيح معلنة بزوغ الفجر ، وسنلتقي غداً إن شاء الله . . . وتأكد أنه طالما كان إيمانك بالله قوياً ، وثقتك في عدالة السماء راسخة متينـة . . . فإن الحق سبحانه وتعالى سينجيك ، ويكون بأهلك رحيماً . . .

ونهض الاثنان . وخطواتهما أثقل من حمل بعير . . . وفي عين فارس دمعة رقراقة . . . وفي قلب راجح وجيب .

١٧

وقف راجح أمام القصر الذي اهتدى إليه بعد جهد ، ولم يصدق ما رأت عيناه . . . فحاول أن يسترجع كل كلمة قالها صديقه فارس عن داره . . . فهذه البوابة الرئيسية مفتوحة على مصراعيها وقد وقف عليها جندي مدجج بالسلاح ، وراقب الحركة الدائبة أمام القصر فتمنى أن يعرف لها سبباً . . .

اقترب من العسكري وبادله التحية والكلام فأخبره هذا بأن صاحب القصر قد مات ، وأن أهله قد رحلوا عنه ، وأنه أصبح قصراً للوالي الجديد . . .

وبدأت الحيرة تسري وتتخبط في أفكاره . . . كيف يعود إلى القبيلة وهو الذي غادرها بحثاً عن عائلة فارس والاطمئنان عليهم ؟؟؟ كيف يعثر على امرأتين خرجتا من دارهما مطرودتين وسط هذا الزحام وهو لا يعرف أحداً ؟؟؟ وزاد في كربته نصح واحد من الأهالي المقيمين بالقرب من القصر أن يمضي في شأنه ، وأن يكف عن السؤال عن عائلة الأبيض بعداً عن المتاعب ، وتحسباً لأية مشاكل قد تتفجر في وجهه . . .

ولكنه أبى بعزم وإصرار أن يرجع دون أن يعرف مصير الأسرة، وقد آلمه

موت عائلهم . . . وأيقظت فيه الظروف التي أحاطت بهم شهامته ومروءته . . . فاتجه إلى مقر الجمعية الوطنية عله يعرف عنهم شيئاً أو يتلمس أخبارهم . . . فلم يجد في المكان سوى البوم تنعق . . .

وقرر أن يمضي في البحث مهما طال به المسير إشفاقاً على رفيقه الذي تركه يتقلب على جمر ، ويكتوي بنار الشوق والفراق ، يقضي أياماً طويلة وليالي تعيسة وساعات حيرى يترصد أخبار أهله ويعيش في قلق وعذاب . . .

***

وبينما فارس يتطلع ويترقب ظهور راجح بين لحظة وأخرى . . . . إذا بالشيخ مفرح يعود إلى المضارب بعد غيبة يومين ، وقد علت وجهه مسحة ألم ، وارتسم على محياه عبوس واضطراب . . .

قال في صوت خشن جاف لم يتعود فارس سماعه من قبل : -

— أريدك يا نديم أن تمشي معي خارج المضارب . . . .

وقام الشيخ يمشي مطرقاً . . . وسار هذا بجانبه لا يتفوه بكلمة احتراماً لصمته . . . وعقله في حالة غليان يستمر . . . « . . . كيف عرف الشيخ مفرح اسمي الحقيقي . . . لا . . لم تخنّي أذناي فقد نطق به نطقاً سليماً . . من أين له هذه المعلومة ؟؟؟ ومن أنبأه بها ؟؟؟ وكيف سأواجهه ؟؟؟ » .

حتى إذا بَعُدا عن القوم ، وأشرفا على التلال . . . صاح الشيخ مفرح آمراً . . « هنا . . . » وقبل أن يلمس الأرض قال : -

— اسمع يا نديم . . . نحن العرب قوم شرفاء . . . نحب من يحبنا ، ونتّقي من يعادينا . . . لا مقام بيننا لمن يكذب علينا أو يحاول

خداعنا . . . نعرف أين نضع ثقتنا ، فإذا ما وضعناها قدر علينا أن نتحملها ، لأن الثقة عندنا أولها كلمة ، والكلمة شرف ، والشرف ثمنه غال . . . . . . وأنت مدرك أننا قد وضعنا ثقتنا فيك . . . وأحببناك فأصبحت فينا ومنا . . . أكلت من زادنا ، وشربت من مائنا . . . وخالطت حرائرنا . . . (وتوقف قليلاً . . .) .

وإني أتساءل والأسى يملؤ فؤادي . . . كيف جاز لك أن تكذب علينا وكيف سمحت لضميرك أن يخدعنا ؟؟؟

هل تعرف ما هو الثمن . . . ثمن الخداع والكذب ؟؟؟

(وصوب بندقيته إلى صدر فارس دون أن تهتز أطراف يديه ، وعيناه مركزتان على وجهه . .) .

أطرق نديم إلى الأرض . . . وتفرّس في التراب وكأنه يرى صورة نفسه تنعكس عليه كمرآة . . . صفاء ، ونقاء ، وصدق ، وطهارة ، وأمانة ، وبراءة . . . . ثم رفع رأسه ونظر إلى الوجه الذي تيبَّست عروقه وجمد الدم فيها . . وقال : ـ

ـ لا عليك يا شيخ مفرح . . . أنزل سلاحك ، واهدأ بالاً ، وتريث في الأمر ، واستمع جيداً إلى ما أقوله . . . فوالله ما أنا بخادع ولا كاذب . . . ولكن الأقدار أقوى مني ، والظروف أسرع وقعاً في ضربها ، فلم تترك لي فرصة للكشف عن حقيقة أمري . . . فعندما جئت إلى هذه الديار ووطئت أرضها كنت أحمل سرّاً كبيراً لم أتجرأ على الإفصاح عنه ، وأنا الذي عشت في المدينة بكل ما فيها من غش وخداع ، وميل وزيغ . . .

كنت أبحث عن مكان آوي إليه . . وقوم احتمي بهم . .

أما وأن بقائي بينكم ، وعيشي معكم ، واختلاطي بكم ، أكسبني

الصدق وحملني الأمانة ... فإني سأقص عليك قصتي .. ولك أن تصدقها ... أو أن تذبحني كما تذبح الشاة .. فالعمر محدود ، والموت مكتوب ، والعيش مقسوم ...

(ألقى الشيخ مفرح سلاحه ، واعتدل في جلسته ، وأمسك عصاه ، وتهيأ يستمع ...)

« .. نعم ان اسمي نديم .. ابي ينحدر من سلالة تركية عريقة المحتد ، واسع الثراء ، عريض الشهرة .. وأمي من بطون العرب تنتمي إلى قبيلة الصفا ..

ولدت وفي فمي ملعقة من ذهب ،، نشأت وترعرعت في ثراء ونعيم ، وعشت شبابي بين خدم وحشم ، وعز وترف ... حتى إذا بلغت مبلغ الرجال .. تلفتّ حولي ، فوجدت أني محاط بأبهة زائفة ، وأحسست أن حياتي لا طعم لها ولا معنى ، وأخذت أفكار غريبة عن واقعي جديدة عليّ تؤرقني ... لم أشعر بالسعادة التي يشعر بها الناس خارج أسوار القصر وهم يعملون ويكدحون ... تلفهم الراحة والطمأنينة ... ويقنعهم القليل من الرزق .

ولما حاولت أن أسير في دروب الحياة وان استفيد من تجاربها وان اعايش الواقع ... اصطدمت عيناي بالفقر والبؤس الذي يعيشه عامة الناس ، والسخرة التي تفرض على بسطائهم ، والظلم الذي يقع على الضعفاء والفقراء منهم ... وتأججت في نفسي نار الظلم ، ثم تفجرت طاقاتها عندما شعرت أنا وصحب لي بوطأة الاستعباد وذله ، وتسلط الحاكم الأجنبي على مقدرات هذا البلد ، واستغلال خيراته ، والنعيم الذي يعيشون فيه ، والأدهى أن حبهم وولاءهم ليس لهذه الديار وأهلها ... وأبصرت .. فرأيت البداوة يعيش أهلها في جهالة جهلاء

وضلالة عمياء ، القوي يأكل الضعيف ، وقطاع الطرق ينهبون ما تقع عليه أيديهم سداً للأفواه الجائعة . . .

وأخذنا نحن الشباب نعمل في الظلام خشية أن ينكشف أمرنا ويقضي على ما تبقى من آمالنا . . واستقطبنا كثيرون ممن يحسون بإحساس الوطنية ويشعرون بإنسانيتهم . . . وأقسمنا أن نخلّص الوطن من ذلك الحاكم الأجنبي الدخيل . . .

غير أن الطامعين كثيرون . . . فسرعان ما وشت بنا نفوس ضعيفة فطاردتنا سلطات الأمن . . . وشردونا . . . بل وقبض على كثير من مجموعاتنا ، وأصبحت أنا أحس بضيق الخناق من المراقبة التي لم تنقطع ليلاً أو نهاراً . . . » .

(ثم أغمض عينيه . . وأخذ نفساً عميقاً . . وحلق ببصره الزائغ في الفضاء . . . وارتسم الألم على وجهه . . وأكمل حديثه . . .)

« . . . وذات ليلة ، وعندما كنت عائداً من اجتماع سري . . . ، والوقت متأخر ، والأعصاب مشدودة ، والفكر سارح . . . تسللت من الباب الخلفي للقصر . . . فكان أول ما رأت عيناي منظراً سلبني رشدي . . وسمعت صرخة اهتز لها كياني . . . رأيت أحد خدام أبي الأتراك ، وهو يحاول الاعتداء على أختي ، وقد شدها إلى جسمه ، وهي تمانع بكل ما أوتيت من قوة ، ولما لم تتمكن من صده صفعته بيدها على وجهه ، . . وندت منها صرخة ألم زلزلت ما بقي فيّ من عقل أو بصيرة . . وغلي الدم في عروقي ، ولم أعد أرى شيئاً أمامي سوى ذلك الفحل ممسكاً بها ووجدت نفسي أندفع بشدة وقوة إلى حيث يقفان . . . وأبصرت معولاً على الأرض فحملته ، ، وهويت به على رأسه . . . فإذا هو خرير دمه . . . جثة بلا حراك . . . وحملت المعول مرة أخرى وهويت به على رأس

أختي . . . وكانت قد صعقت لهول الدماء تنزف من رأس ذلك الوغد فتراجعت خطوتين إلى الخلف أنقذت حياتها .. وهوى المعول على كتفها ولمس جزءاً من جبينها بعد أن أخطأ موقعه في رأسها ... » .

وسالت الدمعات على خده ، فبللت ذقنه . . ونظر الشيخ مفرح إلى وجهه الذي أخضبه الخجل ، ومسحة من ذل تعلو جبينه فغدا أحمر قانياً . . . ورأى صفاء زرقة عينيه تؤكد له صدق ما يقوله . . .

واعتدل نديم في جلسته . . . وتابع حديثه . . .

– « . . . أقسمتْ عليّ أمي أن أغادر البلدة حتى تستطيع أن تدبر أمر القتيل ، وتطوي صفحة العار التي فتحت أمامها سيما وأن أبي مريض عاجز عن الحركة . . .

وجدت أنا في اختفائي بضعاً من زمن أماناً لي ، وفسحة من مجال أستطيع خلالها أن أفكر وأخطط للمستقبل ، ولقد راودتني فكرة تسليم نفسي للشرطة . . . أحكي لهم وقائع ما حدث بصدق وأمانة . . . ولكني خشيت أن تكون هي الفرصة التي يتمنونها ، واللحظة التي ينتظرونها للقضاء عليّ . . وخشيت أن يُشَهِّروا بأختي وفضيحتها . . . وهي الفتاة الطاهرة العفيفة التي غرّها ولوعها بالشباب ، ، ودفعها إلى تصرفها حيويّة زائدة ، وضيق من الوحدة ، وكآبة الجلوس في القصر . . سيما وقد عودتها جدتها في استامبول حياة مجتمع صاخب وحديث مجالس وصحبة علية القوم . . . » .

***

وتابع نديم حديثه :

« . . وتسللت من البيت في جنح الظلام ، والألم يعصف بي ، والحيرة تلفني ، ومشت رجلاي إلى حيث لا أدري كغزال شارد ،

وأخذت أتخبط في صحراء قاحلة ، ورمال كادت أن تبتلعني بعد أن جف حلقي وزاغ بصري وأنهكني التعب والخوف من الوحدة . . . ».

* * *

« . . . وكان ما كان عندما شاهدت ذينك الشابين يغدران بابنتك سلمى . . . دفعتني غيرتي على أهلي ، ونخوتي ومروءتي إلى إنقاذها ويداي لم تجفا بعد من دماء ذلك الذي حاول الغدر بأختي . . . لم أفكر ، ولم أتريث . . بل اندفعت نحوهما ، وكدت أن أزهق روح احدهما لولا أن سلمى أوقفتني . . »

* * *

وأخرج الشيخ مفرح من جيبه صفحة من جريدة طواها بحذر ، وأشار بيده إلى صورة نديم والخبر الذي نشر تحتها . . « مطلوب القبض على قاتل ، خائن ، هارب ، حياً أو ميتاً،وتحذر الشرطة من يخفي أية معلومات قد تساعد على القبض عليه . . . »

ونظر نديم إلى الشيخ . . وإلى الجريدة . . وقال من خلال أسنانه التي أخذت تصطك غيظاً . . .

- « . . . لست بقاتل يا أبتاه . . . ولا أجد في نفسي موضعاً للخيانة . . . كنا وصحبي نبحث عن حلول نخلص بها البلد من أيدي المستعمر . . .

وليس بخائن من يريد إنقاذ بلده ويحقق العدالة فيها . . .

وأما عن القتل . . فتلك وربي قصتي من البداية حتى النهاية ،

الشرف أغلى من أن يدنسه وغد غادر . . . وإذا كان لا بد من الموت ، فإني أحس براحة ضمير وهدوء نفس بعد أن أنقذت أختي . . . وساهمت في وضع لبنات للكفاح لمن سيأتي بعدي . . . وها أنذا أمامك . . . أفعل بي ما تشاء . . . ولا لوم عليك إن اخذتني من يدي وسلمتني للشرطة ، فربما يكون الأجل قد حان . . غير أنه يحز في نفسي أن أموت دون أن أرى أمي ، وأطمئن على أبي ، وأتسامح من أختي . . . لذا . . فإني اطلب منك أن تشملهم برعايتك ، وأن تضم أمي وأختي تحت جناحيك إن سبقت الآجال وودع أبي الحياة ...

***

احتبست الدموع في عيني الشيخ مفرح وهو يستمع إلى نديم يحمله مسئولية رعاية أهله . . . فأي إنسان عاقل لا يصدق كلام الفتى ؟؟ وأي قلب قاس لا يرأف لحاله . .

ـ لقد صدقتك . . . يا بني . . . فأنت عندي بمنزلة سلمى . . . ولقد توسّمت فيك الخير والنبل والشجاعة ، فلا تحمل هماً ، ولا تقلق بالك . . . سوف تبقى بيننا ولن يجرأ أحد من قبيلتنا على التبليغ عنك أو الوشاية بك . . . وخوفي أن تكون قد أخبرت أحداً بما تعملون أنت ورفقاؤك من أجل إنقاذ البلاد . . . »

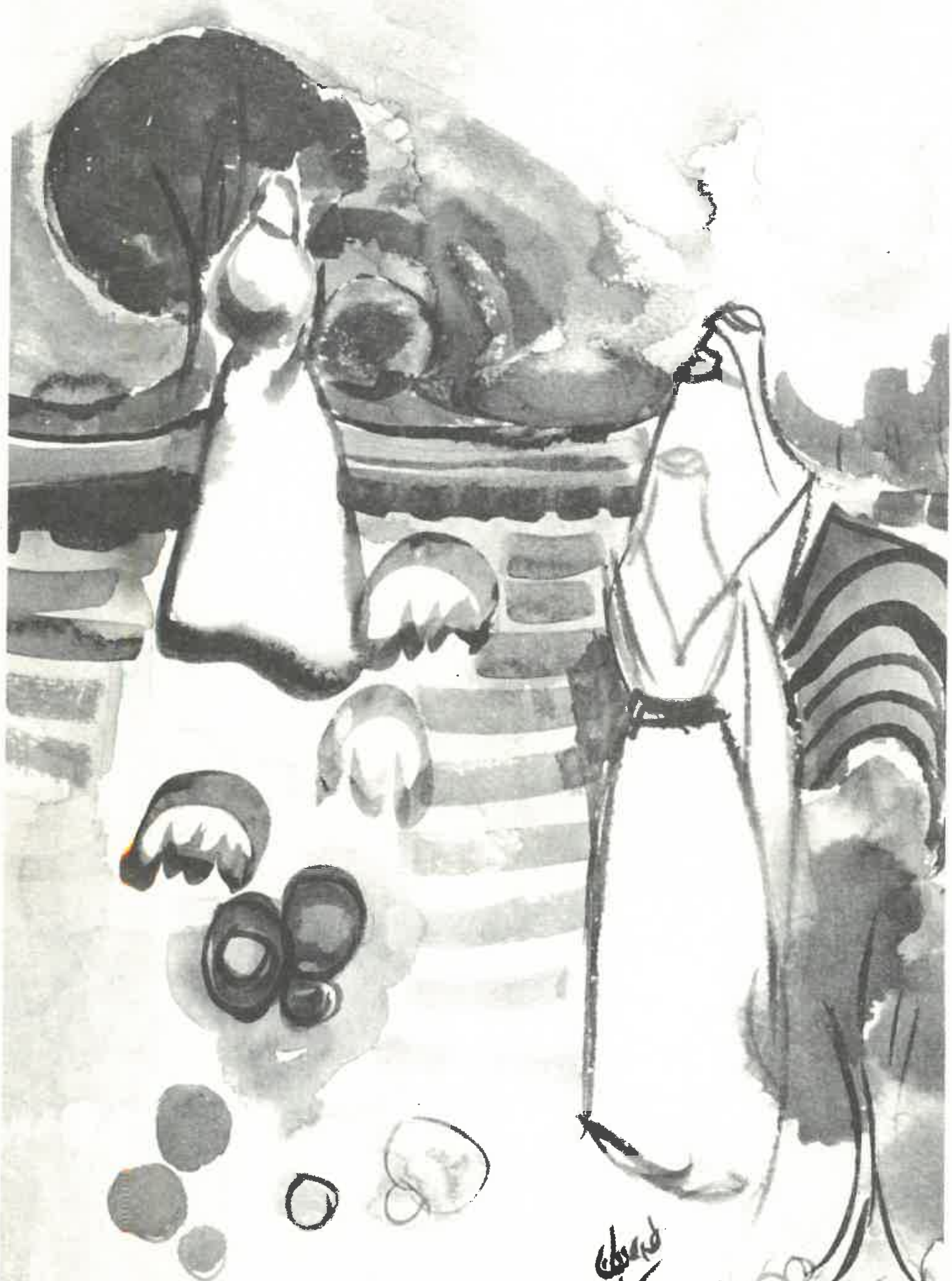
ـ كلا يا أبتاه . . . لم أخبر أحداً سوى « راجح » . . . وأنت تعرفه فتى شجاعاً مقداماً يزينه عقل راجح وفكر ثاقب وتعلم ما بيننا من علاقة متينة وأخوّة صادقة . . . (يصمت قليلاً ثم يكمل) .

ولقد خرج من المضارب قبل أيام بحثاً عن أهلي والاطمئنان عليهم ،

وليبلغهم عني وعن مقري . . . غير أن قلقي يزداد في كل لحظة تمر ، إذ طالت غيبته ، وتأخر عن موعد رجوعه . . . وأخشى أن يكون قد أصاب أهلي سوء ، أو أن يكون قد وقع في كرب . . .

ـ لا تخف يا نديم . . إن راجحاً فتى ذكي ذو بصيرة حادة وتصرّف سليم ، فاستعن بالله . . .

وهيا بنا إلى القوم . . . فقد طالت غيبتنا عنهم . . .



١٨

لم ينس - قط ذيبان - ورفيقه سارح ذلك الشاب الغريب الذي غلبهما بشجاعته ، وأوقع الرعب في قلبيهما ، وأحبط خطتهما يوم أن حاولا الغدر بسلمى ابنة شيخ قبيلة ساهدة وفوت عليهما فرصة الثأر لقومهما . . . .

لم يتركا فرصة للكشف عن شخصيته والتعرف على حقيقته ومن ثم القضاء عليه . . . فدأبا على اللحاق به دوما .

وحدق ذيبان في الصورة المنشورة في الجريدة وقد طويت بداخلها لفافة قماش اشتراها من المدينة . . . وتبين فيها صورة ذكرته بوجه ذلك الغريب . . . أمعن النظر مرة وأخرى حتى تأكد أنه خصمه وعدوه اللدود . . . هرع بالجريدة إلى معلم القرية يستقرؤه الخبر . . . وما أن سمع أنه « قاتل . . . هارب . . . خائن . . . » حتى طار صوابه فرحاً ، واستدعى « سارحاً » . . . وتسللا خفية إلى مضارب ساهدة والظلام يسدل عليهما ستاره وهما أشد ما يكونان عليه من حذر . . . وأطلاّ - من وراء شجرة - يرقبان ويتلصصان ، وعندما رآه ذبيان يجلب الماعز ، وينفخ النار ، ويصب القهوة ، لم يصدق عينيه . . . غير أنه تأكد من شخصيته

عندما أبصره يمشي مع سلمى . . . فتذكر قامته وهامته وقوة ساعديه ....
فأطلق ساقيه للريح ، ومن خلفه يجري سارح . . .

***

أخذ فارس يد سلمى . . . ومشيا في هدوء الليل وسكونه ، والقلب منه يخفق ، والفؤ اد منها نشوان بعد أن سرى في جسدها تيار خفيف أيقظ احساسها ، وشعرت أن دفء يديه يحملها رسالة احتارت في فهمها ، وصعب عليها حل لغزها . . . فجلست أمامه ، ونظرت في عينيه . وقالت فيما يشبه الهمس : -

- أتراك يا فارس تحس بما أحس به ؟؟؟ !!!
- (نظر اليهٰ وصوته يذوب رقة وحناناً . .) حسبت أنه لا يخفى عليك خافية عني . . . إن كنت في شك فاسألي عينـيّ فهي تفصح عما يدور في نفسي . . .
- أنا لا أخاف إلا من عينيك . . . فالزرقة صفاء ، وصفاء الدنيا مسكوب في هاتين العينين الزرقاوتين . . . ومع هذا فإن فيهما غموضاً كأنها تخفي وراءها سراً !!!
- إني لا أخفي إلا مشاعري نحوك . . ولو أوتيت فصاحة قس وحكمة لقمان لما استطعت أن أعبر لك عنها .وسكت برهة..ثم قال هامسا إنني يا سلمى ممتن ومدين لك بهذه السعادة التي أعيشها ، والراحة التي تلفني عندما أكون معك ، والصفاء الذي أرى من خلاله شفافية حسك و . . .
- ويلي . . ويلي منك يا ابن المدينة . . . أتراك قد قلت هذا الكلام وأمثاله لفتيات الحضر ؟؟؟

ـ يعلم الله أني ما جلست مع فتاة من قبل .. ولا تحدثت بهذا أو غيره . . . لأني لا أتكلم إلا عندما أحس بإحساس صادق ، وعاطفة جياشة . . . وأين هذا مني في المدينة ؟؟؟

ـ إذن . . ماذا كنت تعمل ؟؟ وكيف كنت تمضي أيامك ولياليك ؟؟؟

ـ أو حقاً تودين معرفة ذلك ؟؟؟

ـ إي وربي . . .

أغمض فارس عينيه ، ثم أطرق ملياً . . وهمس فيها بينه وبين نفسه . . . « رحماك يا الهي !!! أفي كل يوم امتحان عسير ؟؟ هل أقول لها كل شيء ، وأصارحها قبل أن تفجع فيّ وتعرف الخبر من غيري محرفاً مشوهاً . . .

ولماذا لا أبوح لها بسري . . . أليست هي أقرب القوم إلى نفسي وقلبي ؟؟ وهذا الشعور الغريب الذي أحسه نحوها . . . وهذه النظرات الصائبات التي توجهها إلي وأحس بوقعها في كبدي !!!

من يدري ماذا يخبؤه لنا القدر ؟؟ وكيف سيكون مصيرنا . . . وإلى أين ستؤدي بنا النهاية ؟؟؟ » .

وجاءه صوتها حالماً من بعيد وكأنه يقول « أفق أيها الفتى المتيم !! » . .

ـ علامك يا فارس !! أو تدري أن قلبي يحدثني عنك بأمر . . . أريد أن أعرف ماذا كنت تعمل في المدينة ؟؟ وكيف . . وأين تقضي أوقاتك ؟؟؟ ومن هي تلك الفتاة التي علمتك زين القول وجوهر الكلام ؟؟؟

ـ أهذا كل ما يعنيك من أمري !!!

ـ لا يا فارس . . . كل أمرك يعنيني . . .

- وهل تصارحيني أن أنا سألتك سؤالاً ؟؟؟
- أنت تعرف أني لا أخفي عنك شيئاً . . .
- كيف ترين « فارساً » في عينيك ؟؟ .
- أراك سيد الفتيان وأشجعهم . . . وأنبل الشجعان وأكرمهم . . . وأندى الكرماء وأعظمهم . . . أنت في عيني الشهم الأبيّ . . الرجل الذي تتمناه كل حرة بعلاً لها . . .
- وإذا قيل لك إن « فارساً » كاذب مخادع ، قاتل هارب ؟؟؟
- صه . . صه . . من يجرؤ على قول كهذا أمامي سأقطعه بأظافري وأنهشه بأسناني . . . ولا أظنه سيبصر طريقه إلى الحياة بعد ذلك . .
- ولكنك يا سلمى لم تعرفيني من قبل . . . فلا تتسرعي . . .
- لقد عرفتك يوم دافعت عني ، وحميت عرضي ، وأنقذت شرفي من الغادرين وأنت لا تعرفني . . .

لقد عرفتك ساعة أن تلاقت عينانا ، وتلامست يدانا . . . وأنت كما أنت الآن عفيف النظر ، طاهر الجسد ، نقي الفؤاد !!!
- إذن فاسمعي حكايتي ، وانصتي جيداً ، ولا تقاطعيني في كلام حتى أنتهي منه . . . فإذا قضيت . . . فاسألي ما شئت . . .

. . وإياكِ واصدار حكم قبل أن أكمل القصة . . .
- سأفعل يا فارس . . . أعدك . . . ولكن . . .
- (ووضع سبابته على فمها . . .) ليس الآن . . انتظري واصبري . . .

* * *

وعندما فرغ فارس من الكلام . . . جذب نفساً عميقاً وكأنه

يستنشق هواءاً جديداً يملأ رئتيه . . . واسترخى متثاقلاً كأن حملاً أزيح عن كاهله . . .

وأحست سلمى بدوار شديد ، وكأن الأرض تهتز من تحتها . . ونظرت إليه والدموع تغطي محاجر عينيها . . .

- أنت . . . طريد العدالة . . . أنا لا أصدق هذا . . . فمثلك يجب أن يكون بطلاً مشهوراً ، وعلماً من أعلام المدينة وسيدها . . .
لا تخف يا فارس ، ولا تقلق . . . فأنت بيننا عزيز ، ولقد زادك شرفاً في نظري ما فعلت . . . سوف يدافع عنك كل من في هذه القبيلة وسأحميك بروحي . . . و . . . (وما لبث أن هزها البكاء فقامت تتعلق به وتعانقه والكلمات تخرج من فمها منقطعة . . .) .

- حياتي لك فداء . . . سأدافع عنك ، ولن يجرؤ أحد أن يمسك بسوء . . . وستبقى معنا ، ولن يأخذوك مني إلا على أشلائي . . .

* * *

وأحس فارس بدموعه تختلط بدمعاتها المتساقطة رذاذاً ، والمطر من فوقهما يبللهما . . .

ونظر إلى سواد عينيها . . ونظرت في زرقة عينيه . . .

وأيقظهما من أحلامهما صياح الديك معلناً بزوغ الفجر .

١٩

أخذت الشرطة تمشط قرية الصفا ، وتفتش كل خدر وخباء بحثاً عن نديم . . . وتصدى لهم رجال القبيلة . . وقف زيد يدافع عن ابن أخته ، موضحاً لرجال الأمن بأن من كان مثل نديم شهماً جريئاً لا يختبىء بين النساء . . . فانصرفوا متوعدين . . .

***

وعندما دلف ذبيان وصاحبه سارح إلى مقر الشرطة يبشران بأنهما رأوا نديماً رأي العين ، وعرفا مقره . . . تلقاهما مراد أفندي ، ذلك الضابط الذي أتعبه البحث ، وأسهده طول التفكير في العثور على الهارب والقبض عليه . . .

قال ذبيان وصوته يتهدج إثر الفرحة التي طغت عليه . .

— إننا من قبيلة أم الرمان . . . وساهدة القبيلة التي آوته في الضلع الثاني من الوادي . . . ولقد شاهدناه يرعى غنم شيخ القبيلة ، ويسعى في خدمتهم ، ونظن أنهم سخّروه بعد أن بدل اسمه وادعى أنه « فارساً » ولكن صورته هذه تطابق هيأته ، وإن كان قد أطلق لحيته

فإنا نؤكد لك إنه هو . . . وأنه غريب عن الديار . . . أبيض اللون . . زرقاوي العينين . . أصفر الشعر . . .

– نعم . . نعم . . (أجاب الضابط مطمئناً البدوي أن جميع الأوصاف تنطبق عليه) . . . وسأله أن يعود ورفيقه إلى قريتهما . . . قائلاً . . . « سنعمل على وضع خطة لمداهمة القرية والقبض عليه . . . ولكن حذار من أن تتفوها بكلمة حتى لا يفسد بعض المنتفعين تلك الخطة فيتمكن من الهرب . . . » ثم أردف . . . « بعد أن نقبض عليه عودا إلينا لاستلام المكافأة المخصصة ... » .

***

وزع الضابط رجاله المسلّحين حول مضارب ساهدة ، وتسلل نفر منهم إلى داخلها في لباس البدو . . . وتقدم مراد أفندي بخطى ثابتة وصدر مرفوع ، ومن خلفه وقف رجال متأهبون وأيديهم على الزناد . . وصاح في صوت جوهري : -

– « يا شيخ القبيلة . . يا شيخ مفرح . . . » ولما لم يجبه أحد . . . تقدم خطوات والمسدس في يده ، وصاح مرة أخرى . . . « أخرج إلينا يا شيخ مفرح . . نحن رجال الشرطة وحماة الأمن . . نريد الكلام معك . » . . .

ومرت لحظات خالها الضابط دهراً . . . ، وليس هناك من يجيب نداءه أو يرد عليه ، . . . وما لبث أن تحركت في داخله القوة العسكرية فأطلق النار في الهواء محذراً منذراً ، وأمر جنوده بمهاجمة المضارب والدخول إلى ساحة القتال . . .

ووقف يتميز غيظاً عندما وجد أن الأرض قفر ، وكأن الديـار قد خلت من أهلها . . .

* * *

كان الشيخ مفرح قد فكر في فارس ملياً ، وقلب أمره بينـه وبين نفسه ، ولم يشأ أن يتخذ قراراً تكون العاطفـة هي التي تحكمه أو تغلب عليه . . . فجمع من رجال القبيلة عقلاءها ، وعرض عليهم ما كان من أمر فارس . . لم يخف عليهم شيئاً . . وشرح موقفه : ـ

ـ « إن هذا الفتى قد أصـدقني قولـه ، فصدقتـه ، وأنتم قد خبـرتم معدنه ، ووقفتم على حقيقته عندما رماه القدر بيننا لينقذ عرضنا من ذينك الشقيين ، وباركتم المؤاخاة بينه وبين سلمى . . فحق له أن يُصبح واحداً منا ، وطيلة مدة بقائه في رحابنا لم يخيب الظن فيه . . . كان فتى شجاعاً مقداماً غير هياب . . . لم نلحظ عليه أية شائبة ، ولم تصدر منه أية سوء . . . » (ثم سكت قليلاً . . والجميع صامتون ، وكأنهم يوافقونه الرأي . . .) فتابع الحديث ـ مـوجزاً قصتـه وسر تنكره وأسباب مطاردة السلطات له .

« ولقـد فكرت في أمـره . . . فإمـا أن نقوم بتسليمـه إلى الشرطـة فيـأخـذونـه مـأخـذ المجـرم القـاتـل . . . ويعلم الله أن قلبي لا يطاوعني . . لا لأنه أنقذ ابنتي وسمعتنا من العار فحسب ، ولكن لإيماني بأن ما قام به هو الواجب الذي يفرض نفسه على كل من كان في مكانه . . . وإما أن نبقيه عنـدنا ، وفي ذلـك مواجهـة لرجـال الأمن ، ومخاطرة ندفع إليها أنفسنا وأهلينا . . .

(ومرت لحظة ملأت نفوس الحاضرين حرجا ..) فقطعها بقوله :

« ماذا ترون أيها القوم . . لا أريد أن أتخذ قـراراً إلا بمشورتكم ، واعلموا أن الموقف ليس باليسير أو الهين . . فإما أن ندفعه إلى حتفه بأيدينا ، وفي ذلك مذلة لنا وعار بين القبائل والعرب ، وسيعيرونا به مدى الحياة ، وستكون قبيلتنا محل تهكم وسخرية وكيف أننا لم نقم بنجدة من استنجد بنا ، ولم نتمكن من حماية مـن آخينـا بينه وبين فتاة منا . . » .

تبادل الحاضرون النظرات . . وتكلم أحدهم قائلاً : ـ

— « أما والله فإن كلا الأمرين صعب . . فإن سلّمناه إلى الشرطة فالموت ينتظره ، والعار يلحقنا . .

وإن أبقيناه . . فتلك وربي الحرب بيننا وبينهم . .

فهل أنتم مستعدون ؟؟

أجاب آخر : ـ

— إني أرى ـ والرأي بعد المشورة ـ أن نحمي من ناشد حمانا ولجأ إلى ديارنا . . .

وصاح ثالث : ـ

— ـ معنى هذا المواجهة بيننا وبين العسكر . . فاسألوا أنفسكم وتبصروا موقفكم . . . هل لكم طاقة عليهم ؟!! وهـل تقدرون عـلى صد هجومهم ؟؟

أطرق الشيخ مفرح رأسه ثم رفعه قائلاً : ـ

— يمكن أن أقول : إن الجميع يُرجِّحون بقاءه . . . وما دام الأمر كذلك فإنه يتوجب حمايته والدفاع عنه .

أنتم تعلمون أنه لا قبل لنا بمواجهة الجنـد ونحن هنا في المضـارب فالمنافذ مفتوحة والطرق سهلة ، والهدف سيكون أسهل . .

لا بد أن نأخذ حرائرنا ، وحلالنا من الأغنام والإبل . . ونلجأ إلى الجبل ونتحصن به ، ويقوم نفر من الفتيان بالذهاب إلى بني أعمامنا والقبائل المتحالفة معنا نطلبهم لنجدتنا ونستحثهم لمناصرتنا . . . حتى إذا ما طرق بابنا طارق . . تفاهمنا معه بالحسنى وطيب الكلام وأعقله ، فإن استمعوا لنداء العقل حَقَنّا دماءنا ودماءهم ، وإن أبوا وكابـروا، وامتنعوا إلا تسليمهم الفتى . . عندها . . لا يكون أمامنا خيار من ركوب الصعاب . . .

❋ ❋ ❋

استحسن الحاضرون رأي الشيخ مفرح . . . وقاموا في ليلهم يدفعون أغنامهم ويُحمِّلون إبلهم وخيولهم ما احتاجوه من مؤن وذخيرة ومتاع . . . واتجهوا صوب التلال ، ومنها إلى الجبل ، وعرج الفتيان الشجعان وكل يعرف وجهة سيره إلى القبائل بعد أن تفهم كل واحد ما يقول . . .

وما أن انبلج الصبح حتى كانت مضاربهم خالية يتخبط فيها مراد أفندي وعسكره ، وقد حيره أمرهم ، فهذه نارهم لم يزل رمادها دافئاً . . . ولكن أين آثار أقدامهم وخطى إبلهم . . . . لقد عفى عليها الزمن ، فكل ساعة تمر أمامه أطول من دهر . . وعضّ على إصبعه من الندم والغيظ ، وقال : « لقد فعلاها . . لا . . ربما فعلها ذلك الرعديد الجبان سارح . . . . » وعاد أدراجه .

٢٠

طالت أيام راجح في المدينة بعد أن أضناه العثور على المرأتين . . . لم يدع إنساناً يسكن بالقرب من القصر ، أو يراه حوله إلا سأله عن أهله . . وكيف رحلوا . . ومتى . . وإلى أين ؟؟؟

واضطر إلى مخالطة الناس ، والتعرف على بعضهم ، واتخاذ أصدقاء كان منهم فيصل الشريف ـ صاحب دكانة تعود أن يشتري منها لوازمه ـ وأنس هذا به واطمأن إلى نقاء سريرته وصفاء طويته . . فقويت الصداقة بينهما ، وتوثقت العلاقة بمرورالأيام ، وصار راجح يشكو إليه قلقه ، ويبثه مخاوفه . . . بعد أن صارحه فيصل بانتمائه الى الجمعية الوطنية وان دكانته مركز لنقل المعلومات وتبادل الوثائق .

كانت المدينة تعيش في حالة ذعر بعد أن اشتعلت نار الحرب العالمية العظمى . . . وبات الناس يتهيبون بطش الوالي الجديد . . . .

وأصبحت كلمات جديدة تطرق مسامع راجح لأول مرة بعد أن انخرط الجميع في الكلام عن الحرب ، والسياسة ، والإنجليز ، والألمان ، والجاسوسية ، وساعة الصفر ، والطيارات ، والغواصات ، والهدنة ، والمعاهدات ، والأحلاف ، والمؤتمرات ، وغير ذلك . . .

وزادت مخاوفهم عندما بدأت أزمة التموين تمد رأسها كأفعى تلقف ما يأكلون .

ورأى راجح الشباب وقد ارتدوا بـذّات عسكريـة ، وسيقوا إلى ساحات التدريب . . . .

ووقف مذهولاً أمام سماسرة الحرب ، والمرابين ، والجشعين الذين يتاجرون في أقوات الناس . . .

وفكر في نفسه . . وأهله . . . في قبيلته . . . وعشيرته ، وقارن ـ بعقليـة البدوي ذي الفـطرة السليمة ـ بـين هذه الآفـات البشـريـة . . والبسطاء من الناس الذين يضحون بالشاة الـوحيدة التي يملكـونها قرى لطارق ليل أوعابر سبيل ، لا يفكرون في غد مظلم ، أو يوم عابس . . ولا يتخوفون من نار تصليهم جحيمها وتصب عليهم من فوق ، أو مدافع تدك حصونهم على الأرض . . .

وحمد الله وشكره عندما تذكر الهدوء وراحة البال الذي يعيشها قومه في البادية ، وتعوذ من تلك الموجات من الفزع والرعب التي يعيشها أهل المدينة . . ثقتهم مزعزعة ، ونفوسهم مدحورة .

* * *

ولم يخل راجح من مواقف ظلم شهدها كان لهـا أثرهـا السيء في نفسه ، وفكر أن يقفل راجعاً حيث لا يملك أن يقيم العدل ، ويمنع العابثين العتاة والطغاة من ممارسة أسلوبهم . . .

فلقد شاهد جندياً تركياً يضرب صبياً ضرباً مبرحاً في زلة لسان . . . واعتصر قلبه منظر الشحاتين والعجزة والمقعـدين وهم لا يملكون قـوت يومهم ، وقرأ على وجوههم مذلة السؤال ومعنى الانكسار . . بينما فئـة قليلـة

تتمتع ببذخ وإسراف وترف . . . فتذكر ما قاله نديم . . وتظلمه ، وآلامه والمواقف الصعبة التي وقفها ، والأيام العصيبة التي عاشها ينادي بالعدل والمساواة والاستقلال . . . وأحس بإعجاب وإكبار لتلك الفتية من الشباب الذين فكروا وعملوا على تخليص وطنهم من الظلم والاستعباد فكان جزاؤهم التشرد ، والتعذيب ، والموت . . . وآلى على نفسه أن ينضم إليهم ويعمل معهم عله يكتسب خبرة يخدم بها نفسه وأمته . . .

* * *

بعد أن تشبعت روح راجح بما أنتهت إليه حالة المدينة . . . لم يعد يطيق صبراً فيها . . . وبحاسة البدوي ، وحدة ذكائه اتجه إلى قرية الصفا التي جاء ذكرها في حديث نديم عن أخواله . . وقال في نفسه : « لا بد للأم وابنتها أن تلجآ إلى اهلهما ـ في آخر المطاف ـ وأن تحتميا من مصائب الدهر ونوائبه بأخيها وخالها وعشيرتهما . . فهم خير عون وأكبر سند . . .

* * *

وسار في طريقه يثقل كاهله أفكار مُتخبطة ، وهمّ ، وقلق ، واستقبله زيد وهو منه على حذر . . وما أن تعارفا حتى نهض هذا يدعو أخته وابنتها وهو يطمئن قلبها الذاكي بأخبار سارة عن نديم . . . وأخذ راجح يقص عليهم القصص والأهوال التي لقيها من يوم أن ترك بيته إلى أن أوفده إلى المدينة بحثاً عنهم . . . والجمع مستمع ساهم ، وقطرات من دموع تسيل على خد الأم ، وصدر وجدان يعلو ويهبط شوقاً إلى أخيها ، وتوجساً من نظرات راجح التي تعلقت بها وكأنه يريد أن يستشف نفسها ويعرف مكنون قلبها . . .

وما أن أرخت الشمس أذيالها للمغيب ، حتى أولم القوم ترحيباً بقدوم راجح ، وابتهاجاً بسلامة وصحة الغائب . . .

* * *

وعندما اختلى راجح بزيد ، همس الأول بأن « نديماً » أصبح طريد العدالة وقال في صوت مكلوم : -

- أتدري يا زيد ماذا يقلقني بعد أن قضيت في المدينة أياماً عجافاً . . . لقد أصبحت لا أخشى على نديم من تهمة قتله ذلك الوغد ، فذاك أمر يسهل الدفاع عنه والشرطة تعلم ذلك . . . ولكن الخطر يكمن في تلك المطاردة له ولرفقائه . . . فلقد تفجرت مشاعر الناس في المدينة بعد أن اختفى أو هلك جميع من اشتركوا في الجمعية الوطنية وهم جادون خلفه ، ويرصدون مكافآت لمن يرشد عنه وعن صاحبه « جابر بن ضاحي » . . . فقد أصبح هذان الاثنان علمين وبطلين من أبطال الكفاح . .
- نعم . . نعم . . لقد داهمتنا الشرطة وفتشت كل شبر في هذا المكان بحثاً عنه ، ثم حاصرونا ، وشددوا الرقابة علينا فترة من زمن . . . وفجأة . .

انصرفوا . . . وكأن أمرنا لم يعد يعنيهم ، وذاك أمر لا يُطمئن قلبي ، وبت أخشى أنهم قد عرفوا مكانه ، أو أنه قد وقع في أيديهم . . .

(وسكت قليلاً ، ثم نظر في وجه راجح ملياً) . . وقال :

أترى ربعك شديدي المراس ، أقوياء الشكيمة فيها لو تحسست السلطات مكانه بينهم ؟؟؟ . . .

- (أجاب راجح في سرعة البرق) . . إن كنت تعني أن فيهم ضعفاً ،

أو طمعاً . . . فاعلم أن فارساً ـ أعني نديماً ـ أصبح واحداً منا وأن من يمسسه بسوء فكأنه أصابنا جميعاً . . .

وأما إن كنت ترمي إلى حمايته ، فـاطمئن إلى ذلك ، ولا بـد أنك خبرت قبيلة ساهدة وأمجادها . . .

ونظر كل منهما إلى الآخر وفي عينيهما كلام . . أفصح عنه راجـح بقوله . .

ـ موعدنا الفجر أنا وأنت . . . فلا بد أن تأتي معي . . . سيخرج كل واحد منا في طريق ، على أن نلتقي في الوادي السهل ، وبذا نبعد أية شبهة أو مراقبة . . . وإذا ما التقينا سنسير في طريق خاص آخذك إليه يؤدي إلى مضاربنا . . .

وقام يقصد النوم ـ وليس في جفنيه أثر منه بعد أن اكتحلت عيناه بجمـال الصبية ، فتن بعينيهـا ، وأعجب بقدهـا وقوامهـا ، وسحرتـه جاذبيتها ورقتها .

واستلقى على عباءته ، والنجم يسطع في سمائه ، واسم الفتاة نغم يتردد في وجدانه وهو ينشد : ـ

وإني لاستغشى ومـا بي نـعسـة لعـل خيـالاً منـك يلقي خيـاليـا

٢١

عندما أخذ الشيخ مفرح يوزع رجاله على مواقعهم في الجبل وقد أخذت طلائع وفود القبائل ترد تباعاً حاملة سلاحها ، رافعة راياتها . . . ازدادت حيرة فارس ، ولم يدرك سر هذا التحصن والاستعداد ، وأوجس منه خيفة . . . ودارت في رأسه الظنون ، وانخرط الشيخ مفرح في ترتيبات لم تدعه لنفسه قط فلم يجرؤ على الوقوف أمامه أو مساءلته . . . وكان كلما اقترب منه يريد محادثته انصرف عنه وهو في ملابس لم يرها من قبل مما أكسبته هيبة وكأنه ساع إلى ميدان قتال . . .

وسمع فارس صوتاً يناديه من قرب ، فنظر إلى حيث الرجل . . . فصدرت منه كلمات سريعة مقتضبة ، حادة قاطعة : « . . . هاك سلاحك ـ إن كنت تريده ـ واصعد إلى تلك الصخرة الثالثة على اليمين . . . وسيكون معك شداد ونمر ، ولكن لا تطلق النار حتى يأذن لك شداد ويعطيك الإشارة . . » .

وتلفت يمنة ويسرة ، فوجد كل واحد من القوم وقد أخذ مكانه ، بحيث لم يعُد يرى أحداً إلا مختفياً وراء صخرة أو داخل كهف . . .

وازداد قلقاً ، وتمنى لو أن واحداً يُطلق لسانه فيخبره عن هذا

الاستعداد ، وهذا التحول الذي طرأ على حياتهم ، فعكر صفوها وأقلق هدوءهم .

ولما لم يجد من يرد على أسئلته ويشفي ظمأه ، صعد الى الصخرة التي أشار إليها ذلك البدوي الجاف وفي نفسه ظلت تساؤلات : ـ

« ترى . . ما الذي يجري ؟؟ وما الذي أصاب القوم وأفزعهم ؟؟؟

هل أكون أنا المطلوب ؟؟؟ هل عرفت الشرطة مقري ؟؟

ولماذا لم يخبروني ؟؟

وهذه الوجوه الغريبة التي أراها لأول مرة . . . من هم ؟؟؟

لا بد أنهم من القرى المجاورة لجأوا إلينا ، أو إنهم جاءوا لمساعدتنا ؟؟

ولكن . . . ممن . . . ؟؟؟ وعلى من يساعدونا ؟؟؟

لعل نفراً أو بعضاً من قبيلة أم الرمان قد جمعوا شتات أمرهم ، وهموا بالغارة علينا طلباً للثأر . . . ربما أكون سبباً من أسبابها !!!

إذن لا بد أن يكون موقعي في الصدارة مع الشيخ مفرح وليس هنا في الخلف !!! »

وأحس بأفكاره تقف ، والعرق يتصبب من جبينه ، وغشيت عينيه غمامة عندما تذكر سلمى وهي بين يدي ذبيان ورفيقه ، وما فعل هو بهما . . .

وحاول أن يتكلم مع شداد ونمر ، ولكن هذان أشارا بيديهما أن كُفّ عن الكلام . . .

وسكت مغلوباً على أمره ، غير أن ضجيج أفكاره أخذ يعلو ويدوي في نفسه وتردد أصداءه الجبال الملتفة حوله . . .

* * *

والتقى راجح برفيق دربه زيد في المكان والموعد المحددين وسار ذاك به في طريق وعرة عبر التلال والجبال إلى أن أشرفا على المضارب . . .

وشارك زيد راجحاً دهشته ، وأخذا يُقلبان الأمر في هجرة القوم ورحيلهم الطارىء . . .

وما لبث أن تدارك راجح نفسه واتجه - وزيد خلفه - إلى أقصى المضارب من ناحية الجبل ، وهناك وجد الإشارة التي تركها له أخوه . . .

ونظر إلى زيد فقال هذا : -

- لعلهم أرادوا أن يقولوا - فيما أرى - « نتوقع شراً . . . اتبعنا إلى الجبل . . » . . .

- (لم يستطع راجح كتمان إعجابه بفراسة زيد وفروسيته . . .) أما وقد فهمت إشارة جماعتي . . . فهل يجول بخاطرك ما يشغل فكري ؟؟؟

- لا يخلو الأمر من ثلاث : (قالها في هدوء وثقة) .

إما وأن أحداً قد سعى في وشاية إلا أن أمره قد كُشف . . .

أو أن الصحيفة التي نشرت صورة نديم قد وقعت في يد واحد من جماعتك فعرفوا بالأمر ، ولكونهم أحبوا الفتى أبوا إلا أن يقوموا بحمايته والدفاع عنه . . .

وإما أن تكون قبيلة أم الرمان قد أغارت على القوم ليلاً فنهبوا وسلبوا القليل ففكر ربعك أن يحتموا بالجبل خوفاً من غارة ثانية يصبحون بعدها مجردين من المال والسلاح . . .

- أصبت يا زيد (بعد تفكير عميق . . .) وإني لأميل إلى الرأي الثاني ، فهو أقرب إلى نفسي ، وأجدر بقومي وأحرى . . .

وامتطى كل منهما مطيته والسلاح في يده ، واتجها إلى الجبل . . .

وعند الاقتراب منه أرسل راجح إشارة ـ بوشاحه الأبيض ـ وتلقى رسالة الرد . . . وصعدا إلى حيث يعقد الشيخ مفرح مجلسه . . .

* * *

قدم راجح زيداً بعد أن حيا الحاضرين ، وعرفه بكل واحد منهم ، وما لبث أن قال ـ وزيد يسمع وينصت ـ

ـ أرى الرجال وقد شد كل واحد حزامه ، وتمنطق بخنجره ، ونصب سلاحه . . . أترى ! . . . غارة ، أم حرب ؟؟؟

ـ لا هذه ولا تلك إن شاء الله ـ أجاب الشيخ مفرح بصوت رزين ـ ولكنها الحيطة والحذر يا بني . . .

لقد وقعت في أيدينا جريدة نشرت صورة فارس وتدعي أنه قاتل . . . خائن . . . هارب ، وأنه مطلوب للعدالة ، وتحذر وتنذر من يتستر عليه ولا يخبر الشرطة عنه . . . وبعد مواجهة الفتى أخبرني بأمره وقص علينا قصته ، ثم ترك الخيار لنا في أن نسلمه للعسكر يقتصون منه ، أو أن يبقى بيننا . . . ولقد توجست خيفة من بعض من نعرفهم من بني أم الرمان وغدرهم ، وتشاورت مع أولي الرأي . . . فإذا هم يقضون بما يمليه الواجب ويرتأوون ما أرى من حمايته والذود عنه . . .

وانت تعلم أن المضارب عرضة للهجوم في أي وقت ، ولا حصن لها ولا خط دفاع ، ويسهل على العسكر تطويقنا فيصبح لا حول لنا ولا قوة . . . فنقع في أيديهم وينتزعون فارساً من بيننا دون مقاومة . . .

أما هنا فنستطيع أن نتفاهم معهم ونحن في مواقعنا ولنا الغلبة عليهم ، ونعلمهم بيقيننا بأن الفتى ليس مجرماً وأنه إنما قتل دفاعاً عن

الشرف ، فإن استجابوا لنداء العقل ـ فكفى الله المؤمنين القتال ـ أما إذا بادرونا بالهجوم وفتح النار . . . كانوا هم الجانين على أنفسهم . . .

— أحسنت يا عماه ـ قال زيد في حزم وإصرار . . . (ثم أضاف وفي صوته رنة أسى وحزن . .) لقد داهمونا ونحن عزّل ، وداسوا على كرامتنا ونحن نيام ، ولم يراعوا براءة الأطفال ، ولا حرمة النساء . . .

— وأين فارس يا شيخ مفرح (قال راجح في شوق . . .)

— إنه في أعلى الجبل من الناحية اليمنى . . . بين شداد ونمر . . .

— أنعم بهما سيدا المحاربين ، وأشجع شجعان ساهدة ، هل تراك موافقاً على زيارتنا ـ أنا وخاله ـ والجلوس إليه والبقاء معه ؟؟؟

— ولكن . . . لا تسرفا في الكلام فتسري العدوى وتعم الفوضى ، وإذا تكلمتما . . فهمساً وإيجازاً . . .

(وقبل أن يهما بالنهوض قال الشيخ مفرح في لهجة الآمر . . .)

إياك . . ثم إياك من أخباره شيئاً عن هذا التحصن أو سببه إذ لا يعلم بسره إلا نفر قليل . .

***

فاضت دمعات طروب عندما رأى فارس صديقه وخاله وهما ينقلان اليه شوق أمه ودعاءها ، وحب اخته وسلامها . . . وقام يضم خاله زيد ويعانقه لأول مرة وهو يقول : ـ

— شاء القدر أن أراك وتراني وأنا بين الأعراب وعلى هيئة البدوي . . لقد حُرمت من رؤ يتك ، وَمَنعت انت نفسك عنا . . لا كرهاً فينا . . .

ولكن تمسكاً بمبدأ وعروبة صادقة ، ولقد غرست في نفسي هذا الحب ـ من غير أن تعرف ـ فحق لي أن أشكرك وأفخر بك . . .

ـ بل من واجبي أن أضمك إلى صدري وأتنسم روائح العروبة تجري في أوصالك وتسري في دمك . . . فما فعلته ، وتفعله من نبل وشهامة وتضحية يجعلني أطاول بك العنان ، وأسمو بشجاعتك على كل شيء . . . فانت اليوم فارس ، وستكون أغلى الفرسان . . .

***

وجلس راجح إلى جوار فارس ، والليل يطوي سواده ، والهمس يسري بينهما ، حتى إذا توارى الظلام حياءاً ، وانبلج الصبح إشراقاً ، قاما ، وفي نفس كل منهما قلب يصبو وفؤاد يتعذب .

٢٢

أثارت خيل الجند الغبار عالياً فكدر صفو قبيلة أم الرمان ، وأيقظ فضولهم، ووقف مراد افندي يصيح وسط الحشد الذي تجمع مستطلعاً الخبر : -

- أين ذبيان ؟؟؟ أين سارح ؟؟؟ . . .
وأين شيخ القبيلة ؟؟؟
أريدهم أمامي الآن . . . (وأشاح بوجهه يبحث عنهم) ؟ !!
وخرج الشيخ طارش بن شبيب يمشي في تؤدة ، ونفسه تتوق إلى معرفة سر هذا الغزو الذي لا يعلم من أمره شيئاً . . .
وسرعان ما جيء بالاثنين المطلوبين وقد بدا الخوف على وجهيهما وارتعدت فرائص سارح ، وأخذ يجرجر نفسه كالذي يساق إلى قتال وهو منه خائف . . .

- يا شيخ العرب . . . هٰذان الشابان قد حضرا إلى مركز الشرطة وقدما بلاغاً كاذباً عن وجود نديم بن طاهر الأبيض القاتل والخائن الهارب من العدالة ، وادعيا أنهما رأياه في قبيلة ساهدة المجاورة لكم . . . وعندما تكلفنا بالشخوص إلى هناك . . . لم نجد سوى الريح تصفق

في وجوهنا ....

وتعلم يا شيخ طارش إن مثل هذا البلاغ الكاذب قد يجر عليهما وعليكم متاعب كثيرة . . .

— (. . في دهشة بالغة بدت على وجهه أجاب هذا . . .) لا علم لي بالذي قلته . . . ولا أدري عَمَّ تتكلم . . . (ثم توجه إلى ذبيان ، وفي لهجة آمرة . .) هات ما عندك يا فتى . . . تكلم واخبرني واخبر القوم بما فعلته . . .) .

— (. . في صوت أصابته رعشة الخوف والخجل . .) إنني كنت قد رأيت ذلك الشاب الغريب بالقرب من حمى ساهدة . . . ثم وقعت في يدي صحيفة رأيت فيها صورته ، فذهبت إلى المعلم الذي قرأ فيها أنه مجرم هارب ، وأن مكافأة كبيرة رصدت لمن يرشد إليه . . . فذهبت إلى الضابط وأخبرته عنه وعن مكانه . . .

— خسئت يا هذا . . . حقاً إنكما متشردان ، قاطعا طريق . . أمِنْ أجل حفنة مال تقوم بالوشاية برجل غريب ؟؟؟ (ثم اردف مزمجرا): أكنت تعرفه من السابق . . . يا نذل ؟؟؟

— نعم . . عرفناه يا شيخ طارش (قالها سارح في سرعة وكأنه يزيح صخرة عن صدره . . . أو كمن يستعطف بها ويتوسل . . .) إنه هو ذلك الفتى الذي صرعنا ـ أنا وذبيان ـ يوم أن لقينا سلمى ابنة الشيخ مفرح وحدها . . .

— (نظر الشيخ طارش إلى ذبيان فوجد الخجل مرسوماً على وجهه ، وعيناه مغروستان في التراب . .) . . . ما هذا الذي يقوله سارح . . أيغلبكما غريب عن هذه الديار ويحمي فتاة بني ساهدة ؟؟؟

ما الذي كنتما تنويان فعله ؟؟؟
أخسة ومكر مرة أخرى ؟؟؟
تباً لكما من شقيين ؟؟ !!!
صاح الضابط في تأفف :

— لا تضيّعوا وقتي . . . وهذه العسكر خلفي تنتظر إشارة بدء الهجوم . . .
أريد من هذين الشابين أن يخبراني إن هما رآ حقاً هذا الفتى . . (واخرج صورته من جيبه . .) وأين وكيف ؟؟؟

— نعم . . نعم ـ رأيناه هناك يرعى الغنم حول مضارب ساهدة . . . ولكن . . . ربما عرفوا أو أحسوا أن الشرطة تطارد الفتى فرحلوا إلى الجبل حتى يستطيعوا الدفاع عنه وحمايته . . . والجبل كما نعلم حصن محصن ، ومن فوقه يستطيع رماة السهام والنبال أن يتصيدوا من يحاول القرب منه . . .

— إذن أريد منكم جميعاً وقد اصبحتم مسئولين أمام القانون أن تختاروا من رجالكم من يعرف الطريق ، وأن يتقدم كوكبة الجند شجعان هذه القبيلة وفرسانها ورماتها . . . كي نستطيع أن نطوقهم ، وأن ننتزع منهم المجرم الهارب . . . هذا إن كان هذان الشابان صادقين . . . أما إذا كانا إلى الكذب والخداع أقرب فإن القتل سيكون جزاء فعلهما . . . وإن أصابتنا سهام القوم أو رماحهم فستنصب على رؤوسكم أولاً . . . ثم أتراجع أنا وجندي إلى الخلف سالمين . .

رفع الشيخ طارش حاجبيه وهو يستمع إلى الضابط . . وقال في صوت يتهدج من الغضب : ـ

— ما هذا الهراء الذي تقوله . . . وبأي حق تجزم بأننا سنمضي معك

إلى القتال ؟ وكيف تدفعنا إلى محاربة قبيلة مجاورة لنا لم يصدر بيننا وبينهم ما يدعوا إلى ذلك ؟؟؟ ما الذي يلزمنا بأن نتزعم المسيرة ونضحي بفرسان هذه القبيلة وأفلاذها في طلب مجرم هارب لا نعرفه ولا ندري عن فعلته أو جرمه ؟؟؟ (ثم وقف غاضباً ورمحه في يده .. وصاح ..) .

لا .. لا أيها الرجل ... لسنا معك .. وسوف لا يتقدم أحد منا ركبك ... هذا الجبل أمامك والطريق مفتوح إليه .. فسر اليه وحدك أنت وجندك ... واكفنا شر مصائبك ...

— ولكنك بهذا تعصي أوامر الحكومة ، وتساعد على أن يتمتع المجرم بحريته ...

— لا يهمنا أمرك .. إن لك جنوداً أقوياء يستطيعون الوصول إليه بقليل من الحيطة والحذر ... وأرجو الا تكرهنا على شيء لا نوده أو نرغب فيه ... ومثلك حصيف أريب يجنب القبائل الصدام بعضها بعضاً ... فاجمع شتات أمرك وخذ جندك ، وسر حيث شئت ...

رجع الضابط إلى جنده ... وبعد مشاورات التفت في حدة وغضب :

— اسمع يا شيخ طارش ... ربما تكون على حق .. فنحن لا نريد حرباً بين القبائل .. غير أنا غرباء عن هذه المنطقة ونحتاج إلى من يرشدنا إلى الطريق المؤدي إلى الجبل من الخلف ... وذيبان وسارح قد تورطا معنا .. بل هما اللذان أوقعانا في هذه المصيبة .. فلا أقل من أن يمشيا معنا .. وهما لا يخفيان طمعاً في المكافأة ...

— إذا كانا يرغبان المضي معكم .. فهذا شأنهما .. (قالها وعيناه ترقبهما ...)

ـ نعم . . نعم . . . نريد (وفرك ذبيان كفيه وهو يمني نفسه رؤ ية نديم وهو بين يدي العسكر مكبلاً بالحديد . . .)

❊ ❊ ❊

وسارت الكتيبة مخلفة غبارها . . . ولسان الشيخ طارش يقول : - « سوف لا يعود هذان الشقيان الينا بعد اليوم . . . وويل لهذه الحفنة من العسكر . . ويل لهم من سهام ورماح بني ساهدة . . .

٢٣

فكر ذبيان أن يلتف حول الجبل والجنود من خلفه ليأخذ القوم على غـرة . . . ولكن الجبل يمتـد طولاً ، وينحـدر بشـدة من الخلف بحيث يصعب تسلقـه ، أو المرور على جوانبـه .. لم يجد بداً من اجتيـاز السـهـل القابع تحت الجبل وسيف الجلاد مسلط على رقبته ، وصوت الضابط يرغي ويزبد كلما تقاعس في المسير أو تهاون . . .

جمـع ذبيان الخيـل والعسكر واقتـرح عليهم أن يقتحموا السـهـل اقتحـامـاً حتى يسلمـوا من السهـام التي قـد تصيبهم من أعـالي الجبـل وأطرافه . .

وجدت الفكرة ارتياحاً لدى القائد فأصـدر أوامره ، ومـا هي إلا لحـظات حتى أطلقوا العنـان للخيل واجتـازوا السـاحـة المتـرامية تحت الجبل . . . وعند وصولهم السفح لم يجدوا أية مقاومة ، ولم يروا شبحاً أو يسمعوا صوتـاً ، وتعجب الضابط من ذلـك الهدوء الـذي ساد المنـطقة وساورته الظنون . . . وقال يخاطب ذبيان وسارح في غيظ :

ـــ هل هي خدعة مرة أخرى ؟؟

وهل كَذَّبتكُما الظنون وحسبتما أنهم فروا إلى الجبل ؟؟؟ . . .

هيا إذن . . . اصعدا إليهم ، واستبينا أمرهم ، ولا تنزلا إلا ومعكما الخبر اليقين !! :

لم تنفع احتجاجات سارح ، أو اعتراضات ذبيان ، في صعودهما الجبل دون حراسة أو قوة . . . ووجدا نفسيهما يزحفان زحفاً فوق الصخور بعد أن اوجعتهما سنابك البنادق التي غرست في جنبيهما . . . وتابعتهما العيون حتى غابا عنها .

* * *

وما ان توسطا الجبل وهما في خوف وهلع . . حتى أطبق عليهما فتية من بني ساهدة . . وساقوهما إلى الشيخ مفرح . . . وانهالت عليهما الأسئلة : ـ

ـ لماذا جئتما إلى هنا أيها الشقيان ؟؟

ـ لقد جئنا تحت تهديد السلاح أيها الشيخ الوقور . . .

ـ ومن معكما ؟؟؟

ـ جند من الوالي وعلى رأسهم ضابط يطلبون « فارساً » . .

ـ عسكر يطلبون فارساً ؟؟ ومن هو فارس هذا ؟؟ . .

ـ يقولون إنه شاب غريب . اسمه الأصلي نديم بن طاهر افندي التركي ، وهو أشقر اللون ذو عينين زرقاوين . . مطلوب لجريمة قتل . . ومتهم بالخيانة العظمى . . .

ـ وكم عدد الجنود ؟؟

ـ يزيد على الخمسين ، وضابط تركي شرس لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً ، وخيول وبغال عليها مؤ ن وذخيرة . .

ــ وكيف عرفتما أن فارساً موجود هنا ؟؟

ثم كيف عرفتما أننا في الجبل ؟؟

وقبل أن يجيب ذبيان أو يفتح فمه قفز فارس من صخرة عالية على رأسه ، ومن خلفه أوقع راجح نفسه على سارح ، وأمسك كل منهما خصمه . . . وصاح فارس « . . . هذان هما الشقيان اللذان حاولا الاعتداء على سلمى ابنتك ، ولا بد أنهما قد سعيا في الوشاية بنا إلى الشرطة ، وها هما يقودان العسكر إلى الجبل ، وقد صعدا يستطلعان أخبارنا ليعودا بعد أن عرفا مواقعنا . . . »

ــ ومن قال إنهما سيعودان ، سيلقيان جزاءهما وجزاء خيانتهما وغدرهما . . (قال راجح في صوت قوي حازم . .)

ــ هيا . . قصا علينا الخبر من أوله ولا تخفيا شيئاً ، وإلا فإن هذه الخناجر ستستقر في نحوركما . . . (واستل كل واحد خنجره . . والشيخ مفرح ينظر إلى الفتيان متشوّقاً إلى سماع الحقيقة ، والوصول إلى رأي حاسم سريع . . .)

* * *

وعندما انتهى ذبيان من سرد الوقائع . . . أحس ببندقية تدك عظام ظهره . . . فالتفت مسرعاً . . . فإذا عيناه تقعان على وجه سلمى التي بادرته بصفعة قوية على وجهه . . وقالت : ـ

ــ ها أنتما أيها النذلان تحاولان الغدر بنا مرة ثالثة . . أما وإنكما قد نجيتما من الأولى ، وفررتما في الثانية . . . فإنكما قد سعيتما إلى حتفكما في الثالثة . . وسأكون أنا التي تهدر دمكما . . .

ــ لا . . لا يا ابنتي . . ابقي على حياتهما ريثما ننتهي من هذه القضية ،

فلا نريد أن نعالجهـا بالـدم . أوكلي أمـرهما إلى حـراس أشداء ، واربطوا أيديهما وأرجلهما حتى لا يهربا . . .

ثم التفت إلى راجح قائلاً : -

- اطلق بندقيتك في الهواء طلقة واحدة ، ثم اتبعها بعد قليل بطلقة أخرى حتى يظن العسكر أننا قد قضينا عـلى هذين الشقيـين . . . وراقب حركات الجند في حذر . . .

وأنت يا فارس . . . عد إلى مكانك ، وأرسل لي خالك زيداً فإن لي معه حديثاً . . .

***

ومشى فارس إلى حيث تقف سلمى . . . ونظر إلى وجهها الذي زادته حدة الغضب حمرة فأكسبته جمالاً على جمال . . وتطلع إلى يدها وهي تحمل البندقية ، فقال وفي صوته رنين ، وفي عينيه بريق . .

- سلمت يداك يا سلمى . . . إنني بك لمعجب ، وفي كل يوم ترتفعين قدراً في عيني فقد اكتملت فيك خصال تفوق تصوري . . . ما رأيت في المدينة فتاة تحمل عصا أو سيفاً من خشب . . . وأنت تقفين أمام مجـرمين غـادرين وفي يديـك الصغيرتـين الرقيقتـين سـلاح يـودي بحياتهما . . . وعلى طرف لسانك درر يعجز عن مثلها فصحاء العرب غـير هيابـة ولا وجلة . . لله درّك ، ودرّ ابيـك . . روحي لـك فداءاً . . يا سلمى . .

- والله يحفظك وينجيك من هذه المكيدة يا فارس ، فإني ما فتئت افكر فيك ، وفي قدرك ، والمصير الذي ينتظرك ويربطني بك منذ ان تركنا المضارب . . . إن قلبي يحدثني بـأمور كثيـرة لا أريد أن أثقـل بها

كاهلك ، ويكفي أنها جاثمة على صدري . . متوسدة أضلاعي . .
وأني عليها لصابرة إن شاء الله . . .

ــ دعك من الوساوس والأوهام . . . سنتخلص منها بحول الله . . .
وبعدها . . . تصفو أيامنا ، وتهدأ أرواحنا ، ثم ننظر في أمرنا . . . .

* * *

وجاء صوت الشيخ مفرج يفيقهما من أحلامهما . . .

ــ هيا يا سلمى . . ارجعي مكانك ، وأعدي لنا القهوة ، وأأتينا بشيء من تمر . . .

ومشى كل منهما في اتجاه . . والعين تدمع ، والفؤاد يئن في استكانة وخشوع .

٢٤

عندما سمع الضابط العيار الناري الأول أوشك أن يقع من على الحصان الذي جفل براكبه عند الطلقة الثانية . . وصاح قائلاً : ـ

ـ أمـان يـا ربي أمـــان . . . لقـد هُلك الشقيــان . . . (وفي ذعـر وهلع) . . . إنهما هناك . . . في أعلى الجبل .

وتقدم عريف الفرقة شامخاً بصـدره . . شاكـاً سلاحـه ، مستأذنـاً قائده : ـ

ـ هل نبدأ الهجوم الآن ؟؟

ـ لا . . لا . . أعني نعم . . نعم ، ولكن ليس الآن . . في الليل . . لا . . لا . . أخشى أن نضل طريقنا ، وأن يصطادونا واحداً بعد الآخر . . . في الصباح الباكر . . . قبل شروق الشمس . . .

ورجع العريف يخبر الجند بساعة الهجوم ، وعلى شفتيه ابتسامة سخرية : ـ

ـ إن قائدنا يرتجف وهو على فرسه لقد أوشك أن يقع على الأرض . . . إنه لا يستطيع أن يتحكم في قراراته ، وليس له خبرة في هذه الجبال الوعرة ولا مراس في حرب المناوشات . . .

* * *

وعنـد شـروق الشمس . . تقـدم الضـابط من الجنـد . . وهـو يصيح . .

ــ سنبدأ الهجوم من هنا . . . (واشار بيده إلى الطرف الآخر المضاد للطريق الذي سلكه ذيبان وسارح ،

وعندما استطاعت الكوكبة بكاملها الارتفاع عن مستوى الأرض ، وأصبحت الخيول تتعثر في الصخور وبين الحجارة الكبيرة تطلع الضابط بمنـظاره الكبير يمنـة ويسرة فلم يـر أحداً . . . فـاطمأن قليـلاً ، وتابع سيره . . .

وعندما ارتفعت الشمس وتوسطت كبد السماء ، اشتد الحر وكثر الظمأ ، ووجد الجند أنفسهم وقد وصلوا أعلى قمة في الجبل . . . ولكنهم لم يجدوا أحداً . . فاشتد غيظ مراد افندي وصاح : ـ

ــ ألا تباً لهؤلاء الشياطين . . أين هم ؟؟ هذا الجبل يضيق بصـمته ولا أثر لهم . . .

ــ لعلهم في ذلك الجبل المقابل . . . أجاب العريف . .

ــ هل تعتقد أنك . . . (وأخذ منظاره المكبر . .) نعم . . نـعم . . إنهم هناك إني أراهم يتحركون . . . . هيا . . هيا بنا إليهم . . لا بد أن أدك حصـــونهم وأسحقهم . . . يجب أن نقبض عـلى المجـرم الهارب . . لقد أتعبنا . . وأنهكنا . . هيا لقد قربت النهاية . . .

ــ ولكن . . لعلهم يستدرجوننـا . . . حتى إذا ما أوشـك بعضـنا عـلى الأنهيار انقضوا علينا . . . فلا نستطيع العودة أو الهرب . . .

ــ هـراء . . . هـراء . . . هيا . . . هيا يـا جنـود ، اوامـــر . . . انضباط . . . إلى اسفل الجبل هذا . . . إلى أعلى الجبل ذاك . . .

سر . .

وهرولت الخيل إلى سفح الجبل من الجهة الخلفية ، وأخذ الجنود يركضون وراءها وقد امسك كل واحد بلجام فرسه ،

وما ان وصلوا سفح الوادي السحيق حتى اصطفوا صفوفاً خمسة . . . . في كل صف وقف تسعة جنود وعليهم رقيب ،

ووزع القائد أوامره ، وبدؤ وا الهجوم . . .

وقبل أن يصلوا إلى الطرف الثاني من الوادي ، وعند أسفل الجبل الذي تحصن فيه الشيخ وجماعته . . . جفلت الخيل ورفعت حوافرها ، فوقع من وقع . . وذهل الباقون من هول المفاجأة . . . ذلك أن سيلاً من الرماح انطلقت فاصطفت أمامهم لتشكل خطاً دفاعياً منع الخيل من مواصلة السير ، مما اجبر الضابط على التراجع ، ثم أصدر أوامره بالخطو إلى الوراء قليلاً . . .

* * *

وما لبث أن جاءهم صوت يدوي من الجبل قوياً ملعلعاً . . .

ــ قفوا مكانكم أيها الجنود . . . وقولوا ماذا تريدون ؟ . .

شعر مراد افندي براحة وطمأنينة في نفسه ، وأجاب في صوتٍ جوهري :

ــ أنتم قبيلة بني ساهدة ؟؟ . .

ــ نعم .

ــ هل معكم شاب اسمه نديم بن طاهر أفندي الأبيض ؟؟ . .

ــ لا نعرف أحداً بهذا الاسم . . .

ــ هو ادعى أن اسمه فارس . . غريب عنكم ، وأوصافه . . أبيض اللون ، أزرق العينين . . أصفر الشعر . . .

ـ نعم . . انه موجود بيننا . . .

ـ إن هذا الفتى مجرم خائن ، قاتل هارب ، ونطلب منكم باسم العدالة أن تسلموه الينا .

ـ ومن قال إنه قاتل ؟

ـ لقد ثبت لدينا أنه قتل شاباً تركياً كان يعمل خادماً عند أبيه في القصر . . .

ـ أتعرف لماذا قتله ؟؟

ـ لا . . لا أعرف . . .

ـ لقد قتله دفاعاً عن شرفه وشرف عائلته بعد أن حاول أن يعتدي على أخته . . .

ـ هذا يعني أنه قاتل !!!

ـ ولكن من كان يدافع عن شرفه واضطر إلى قتل المعتدي فإنه ليس بقاتل .

ـ لا يعنيني ما تقولون . . لدي أوامر مشددة صارمة بالقبض عليه ومعاقبة من يحاول حمايته . . . فإذا رغبتم أن تأمنوا أنفسكم وتتجنبوا المصادمة مع الجند وتحقنوا دماءكم فعليكم تسليمه فوراً . . . أما إذا عصيتم الأوامر وعاندتم وكابرتم فلا تلوموا إلا أنفسكم . . .

ولما لم يسمع جواباً . . أصدر أوامره بالتقدم إلى الأمام . .

وفي لحظات كانت الرماح تتساقط حولهم ، والسهام تصيب حوافر الخيل . . . وتراجع الجنود بعد أن فتح من في الجبل بنادقهم . . بدأ الرصاص ينهمر دون أن يصيب أحداً . . .

ووقف الضابط ومن معه ، والخوف يملأ قلوبهم بعد أن تعذرت

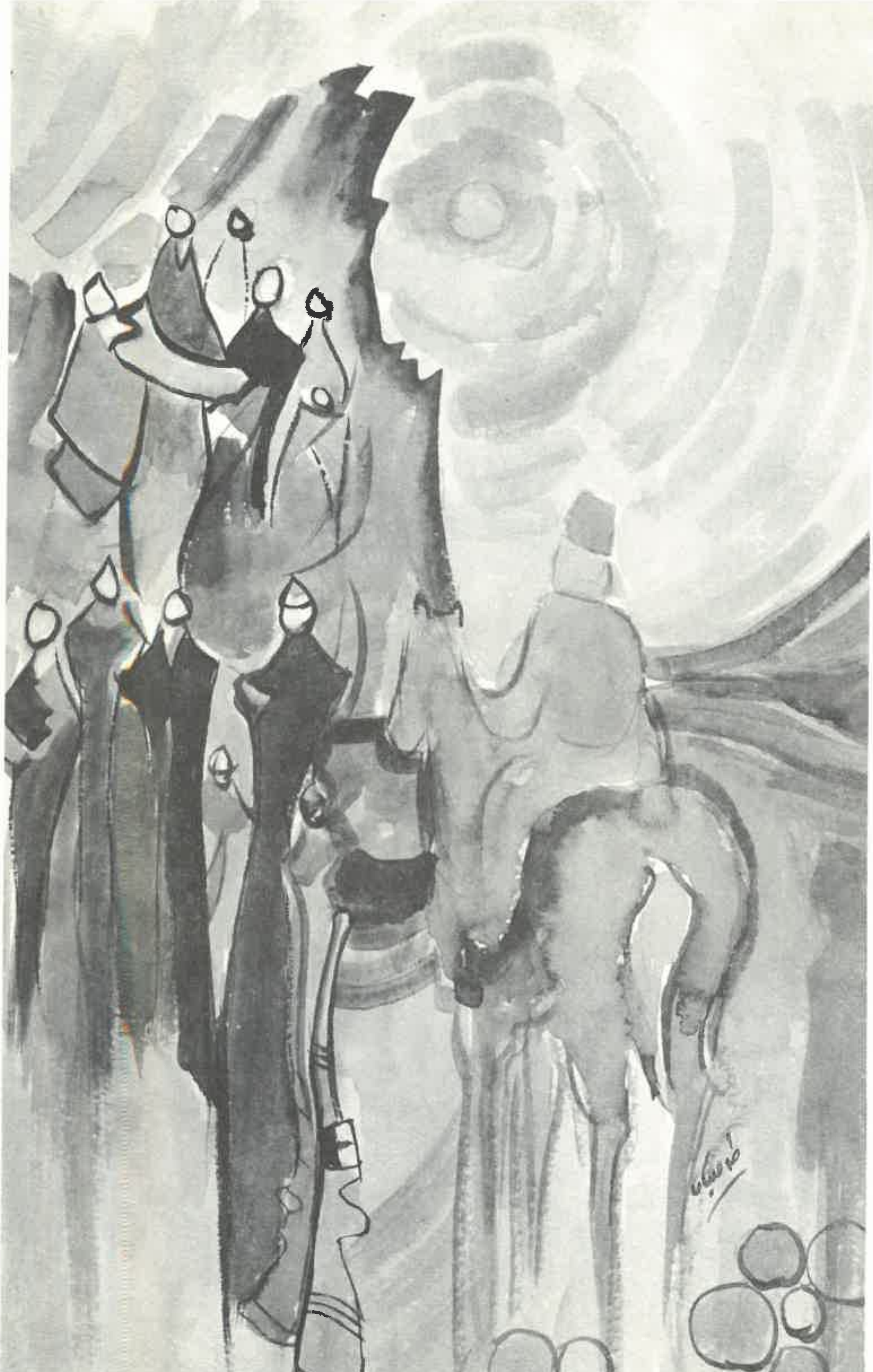
عليهم الرؤية ولم يستطيعوا تحديد الهدف إذ كانت الشمس تسطع في أعينهم .

* * *

جمع القائد شتات جنده وتراجع إلى الخلف ، وجلس يفكر في طريقة يستطيع بها أن يقضي على هؤلاء المتمردين ، وتُسَهِّل القبض على الهارب . .

وصاح في العريف يكلفه بمهمة سرية . . وصب في أذنيه امراً ، فقفز هذا على فرسه واتجه صوب المدينة . . .

وجلس هو يخطط لحصار الجبل ويدرسه من جميع أطرافه .



٢٥

مرت ثلاثة أيام عصيبة ، والجند قابعون في مواقعهم لا يتحركون إلا لقضاء حاجة أو تبادل المراقبة بين الأفراد . . . وازداد قلق القوم في الجبل وكثرت مخاوفهم . .

وكان أول المتكلمين زيد الذي قال : ـ

ـ أرى أن سكون الجنود وعدم تحركهم أمر غير عادي . . فإما أن يكونوا قد أرسلوا في طلب النجدة ، وإما أنهم بيتوا نية لحصار الجبل بحيث يمنعون الصعود إليه أو النزول منه . . .

ـ أوافقك الرأي . . (أجاب راجح في نفاذ صبر . .) وواضح أنهم عدلوا عن فكرة الصعود إلينا خوفاً من السهام ، أو الرصاص . . .

ـ اذن هيا بنا نتشاور مع الشيخ مفرح ، ونرى ما عنده ؟!!!

وقام الاثنان ، وما لبث أن انضم إليهما فارس في صمت ، ومشوا إلى حيث انتهوا إلى مقر الشيخ . . . الذي لم يمهلهم الجلوس . . .

ـ لو لم تأتوا إلي لكنت أرسلت في طلبكم . . . .

ـ ماذا ترى يا شيخنا . . ؟ إن الجو يبدو ملبداً بالغيوم

ـ لا بد أن العسكر قد استبان لهم أن صعود الجبل أمر غير يسير ، وأن

عددهم قليل . . . لذا فقد أرسلوا في طلب المساعدة من المدينة . . . وعسى أن يكون على رأس النجدة رجل ذو بصيرة ورأي رشيد حتى نستطيع أن نواصل الحوار وندبر الأمر في سلام . . .

ـ وماذا لو أنهم جاؤوا بعتاد لا نقوى عليه وبجنود لا قبل لنا بهم . . .

ـ إن لكل ساعة حديثاً . . .

ـ إذن علينا باتخاذ كل حيطة وحذر .

ـ هل تودون أن أذهب إلى عشيرتنا وآتيكم بمال ورجال وذخيرة وسلاح (قال زيد بعد تفكير . . .) .

ـ يتعذر عليك الذهاب الآن، وربما تقع في أيديهم رهينة وهذا ما لا نحمده لك ولا نغفره لأنفسنا ، فاصبر حتى يأذن الله ويرسل فرجاً . . . فما لقتال قعدنا ، ولا لحرب قصدنا . . .

« ختم الشيخ مفرح الكلام . . . وانصرف الجمع من مجلسه » .

* * *

في مساء اليوم التالي . . . . وقبل سقوط الشمس إيذاناً بالغروب . . . بدت طلائع الجحافل تقترب . . . وكلما توغلت نحو الجبل ارتفع غبار حوافرها حتى غطى سماء الوادي . . . وتعذرت الرؤية من قريب أو بعيد وارتفعت أصوات الجند تدوي في كل مكان . . . ومن خلفهم أخذ القائد يستحثهم ويطلب المزيد من الهتاف والصيحات حتى يفزع بها من تحصن في الجبل . . . .

* * *

في الصباح الباكر وقف الجنود في صفوف طويلة يتقدمهم البكباشي

رستم آغا القائد الذي قدم على رأس هذه السرية في بدلته التي رصعت بالنياشين والميداليات ، وسطعت الشمس في النجوم التي يحملها على كتفه ، فانعكست أضواؤ ها وتلألأت . . . وتقدمت عربة يجرها حصانان قويان تربع في وسطها مدفع ثقيل . . . .

* * *

أمر رستم آغا اثنان من الجنود بأن يرسلا إشارة ضوئية إلى من في الجبل تطلب فيها رجلاً للتفاهم مع القائد الجديد وأن عليه الأمان في قدومه ورجوعه . . . ولما لم يتلق إشارة الرد . . حمل علماً أبيض وسار بمفرده إلى أسفل الجبل ، ولوح بالعلم وصاح قائلاً : ـ

— أنا « رسم آغا » ـ قائد هذه السرية . . . أريد أن ينزل إليّ رجل منكم للتفاوض . . .

— سوف ينزل إليك واحد منا . . ولكن حذار من الخديعة والغدر . . .

— أعطيكم الأمان . . وكلمة الشرف العسكري . . .

قفز راجح . . قائلاً : ـ

— أنا لها يا عماه . . . أستطيع أن أقارع هذا القائد الحجة و . . . .

— هل تعلم ما أنت قائله ؟؟ (قال الشيخ مفرح . .) .

— نعم . . ولقد خبرت هذه الأنماط من العسكر مدة بقائي في المدينة وأنتم تعلمون جميعاً أن « فارساً » عندي في منزلة نفسي ، فلا يخامرك الشك في ما سأقوله . . .

واندفع فارس يضمه إلى صدره بقوة . . . ولسان حاله يقول . . . « ليتني اذهب معك » .

* * *

وقف راجح أمام القائد الذي ترجل عن فرسه ، وتقابلا وجهاً لوجه . . . وبدأ رستم آغا الكلام : -

- إنكم تأوون مجرماً هارباً ، وتقفون في وجه العدالة بحمايتكم له ، وتَسْتَخِفُّون بالحاكم وأوامره بالتحصن في الجبل ضد رجال الأمن ، وتبدون من العصيان ما هو كفيل بمعاقبتكم وتقديمكم للمحاكمة . . .

فهل أنتم على علم بتلك المخالفات ؟؟

وهل تنوون الاستمرار في العصيان والتمرد ؟؟؟ (واشار الى الوراء) .

أنظر إلى هذا العدد الرهيب من الجنود . . . وإلى ذلك المدفع الذي سيدك الجبل ويزلزل كيانه . . فهل تظن أن لكم طاقة على الصمود . . . .

- اذا كنت تريد من التهديد تخويفي فاعلم أيها القائد أننا لا نخاف الوعيد . . . بل ونمقته ونمقت صاحبه .

أما إذا أردت أن يكون كلامك صادراً عن عقل وحكمة فأنا مستعد للاستمرار في الكلام معك والتفاهم بالتي هي أحسن . . .

ولقد وقع علي الاختيار لكي أبينّ لك حقيقة غابت عنكم ، وأُبصّرك بموقف من لجأ إلينا ولاذ بنا . . فنحن العرب نُعرف ونشتهر بالحِمَى ، وهو حق علينا ، وواجب أن ندافع عنه حتى آخر قطرة من دمائنا . . .

- تحمون مجرماً ، وتدافعون عن قاتل هارب (صاح القائد في غيظ) .

- إنه ليس مجرماً ، ولا قاتلاً . . .

- لقد قام بقتل خادم أبيه ، وفر هارباً !!!

ـ أوَ تدري لماذا قتله ؟؟؟

ـ لا يهمني لماذا وكيف قتله .. هذه أمور يبحثها القضاة والمحققون ... دوري أنا ورجال الأمن أن نقبض عليه ونسلمه للعدالة لتأخذ مجراها ...

ـ إن في البوادي عادات وأصولاً ... ومن عادات العرب أن تحمي شرفها ، وتصون عرضها ، ومن يتجرأ على مس الشرف أو خدش العرض، فانه يلقى جزاءه.. حتى ولو كان قتلاً ... ونحن قد خَبَرنا الفتى ووجدناه شهماً نبيلاً ، ليس من طبعه العنف ، ولا يميل إلى القوة ... وعندما تجرأ ذلك الخادم على الاعتداء على أخته طاش عقله وجن جنونه ... ماذا تريده أن يفعل ؟؟ وكيف تتوقع أن يتصرف معه ؟.... هب أنك كنت في مكانه !!! ألا تنقذ أختك من يد فحل عمته الشهوة وأفقدته الغريزة صوابه ؟ إن هذا الفتى الذي ساقته الأقدار إلى مرابعنا يوم غادر المدينة ... وضعته في امتحان صعب بعد أن رأى شابين من الأعراب هَمَّا بالغدر والاعتداء على شرف ابنة شيخ هذه القبيلة ، فثارت في نفسه الحمية .. ودفعته نخوة فيه إلى إنقاذها ... وقام بصرع أحدهما وأوشك أن يخنق الثاني ويزهق روحه لولا أن أنقذت حياته الفتاة نفسها .. (وتريث قليلاً ... والقائد ينصت في تحفز) أترى ؟؟ لماذا عرض نفسه لخطر اثنين من قطاعي الطرق غادرين وأنقذ فتاة لا يعرفها ، ولا يعرف من هو والدها أو من أين أتت ؟؟

إن لهذا الشاب ديناً علينا ، وواجباً يقضي بالدفاع عنه وحمايته ... فانظر ماذا أنت فاعل !!!

ولقد حاولنا أن نجنب الجنود وقائدهم السابق سهامنا ورصاص

بنادقنا . . . لا خوفاً منهم ، ولكن اشفاقاً على أرواحهم . . ودرءاً للحرب التي قد تقع بيننا ، فيقتل من يقتل ويصاب الكثيرون . . .
وأنا هنا أناشدك العقل ، وأخاطب فيك الجانب الإنساني المجرد عن شهوة القتل ولذة الانتصار . . .

- وهل تعتقد أني سأرجع إلى ثكنتي العسكرية أقص عليهم حكايتك المؤثرة ، وأقول لهم . . . عفواً . . سادتي . . . إني متضامن مع العصاة لأن القاتل قد احتمى بهم ، وهم سيدافعون عنه لأنه أنقذ شرف ابنتهم من العار . . .
أي عار سيصيبني يا رجل إن أنا عدت إليهم دون أن أقبض على المجرم وأقوم بتأديب المتمردين ؟؟؟ (يصمت قليلاً ثم ينفجر) .
أوتدري أنكم تأوون مجرماً خطيراً ؟؟ إنه متهم بالخيانة العظمى ، اندس في صفوف المتآمرين على نظام الوالي وأسسوا جمعية لتحرير الوطن . . . أتعرف معنى هذا الكلام ؟؟؟ أتدرك عقوبة الخيانة العظمى ؟؟. إنها الإعدام شنقاً !!! (يتريث ويهدأ صوته) .
ولكني أعدك ـ بشرفي العسكري ـ أنه لو سلم نفسه دون مقاومة فإنه سيلقى محاكمة عادلة . .
فلا تحاول وقومك أن تتورطوا معي لأني متمكن من حرب العصابات . . . خبير بدروب الجبال . . . عنيد . . أموت في سبيل هدفي ومأموريتي ـ ولهذا وقع علي اختيار الوالي مولانا أفندم . . .
فارجع إلى قومك ، وأخبرهم عني ، وسأمهلكم يوماً وليلة وموعدنا غداً الصبح . . . فإن استمعتم إلى المنطق والعقل ونفذتم أوامري وسلمتم المجرم وألقيتم السلاح ، فانكم تنالون رضاي ، وتسلمون من نار مدفعي . . .

وإلا . . . فالويل لكم، وقد أعذر من أنذر . . .

ـــ أليس فيك ما يستمع إلى نداء العقل والبصيرة . . .

اللغة التي تفهمها أنت ورؤساؤك هي لغة السلاح والقوة والبطش والعنف . .

ـــ نعم . . . وليكن ما يكون . . . وموعدنا الصبح . . .

***

وقفز في خفة ورشاقة إلى حصانه وقفل راجعاً . . .

واستدار راجح إلى الخلف ، ونظر إلى أعلى الجبل . . . وفي أذنيه تصرخ كلمات رستم آغا . . . وفي قلبه وجيب . . .

وصدى يتردد في أذنيه . . . « هي الحرب . . . هي الحرب . . والله المستعان » .

٢٦

أنصت الشيخ مفرح إلى كل كلمة نقلها راجح عن قائد المعسكر الجديد . . . ومن حوله التف جميع من في الجبل . . والتفتت العيون وعبرت عما يجول بالخواطر في صمت ، ووقف فارس يرقب الموقف وأفكاره تلاحق بعضها وتسابق الزمن ، وأخذ كل واحد منهم يقلب الأمر وينتظر ما يقوله رئيسهم .

وانطلق صوت الشيخ مفرح قوياً ثابتاً قاطعاً : ـ

ـ أما وأن الأمور قد بلغت نصابها ، وأصبحنا تحت وطأة تهديد السلاح ورحمة المدفع . . . فإني أرى وكأن الساعة قد أزفت . . . فلا يهول عليكم الخطب ذلك الأعجمي المغرور ـ فإنا قد عقلنا وتوكلنا على الله . . . الإيمان عقيدتنا ، والعزم سلاحنا . . . وإن فينا رجالاً صناديد مغاوير ، وسوف نصمد أمامهم . . . ونتصيدهم واحداً بعد الآخر ، وعلينا أن نحكم الدفاع وننفذ الخطة المتفق عليها ، وسننتصر عليهم بإذن الله . . .

* * *

نظر فارس إلى خاله زيد فوجده واجماً ساهماً . . وبحثت عيناه عن سلمى فألفاها وجلة قلقة ، وتفحص وجه راجح فقرأ فيه علامات التوثب والتحفز . . . فتقدم خطوة إلى الأمام وقال في صوت مرتفع أيقن أنه يبلغ آذان الجميع : ـ

***

ـ آن لي أيها القوم أن أتكلم . . فأرجو من إخواني وخالي والحاضرين أن ينصتوا إليّ ، ويستمعوا إلى ما يدور في نفسي . . .

فأنا ومنذ أن صعدنا إلى الجبل وأخذنا في الاستعداد والأهبة للدفاع أعيش في صراع نفسي لا يعلم به إلا المولى جل وعلى . . .

إنني ـ يا صحب ـ مؤمن بالله وبقدره وما هو مكتوب عليّ من خير وشر . . . وقد كان حظي في هذه الدنيا أن أسعد في طفولتي ، وأن أشقى في رجولتي . . .

لم يكن لي خيار في أن يكون أبي متعصباً للدم التركي الذي يجري في عروقه . . . ولكن الاختيار الحقيقي بدأ يأخذ طريقه الى نفسي عندما أحسست أنا بالانتماء إلى أخوالي . . . وإلى العروبة التي ورثتها عن أمي . . . .

وكان الاختبار الصعب في محاولة فك ذلك القيد الحديدي الذي كان يربطني بالعادات والتقاليد التي حرص ابي أن يورثني إياها . . . وأن أجتازها إلى ما كانت نفسي تتوق إليه . . .

وما أن تفتحت أمام عيني الدنيا ، وصرت أحس بآلام الناس بعد أن تسلل إلى نفسي نسيم الحرية ، وبعد أن أفْلتُّ من السجن الكبير الذي عشت فيه . . . حتى آليت على أن أعمل لخدمة هذا الوطن وأن

أتعاون مع أبنائه الأبرار لتخليصه من الحكم الأجنبي . . .

وعظم الأمر على والدي . . وكبر الجرم في نظره ، لأن أي حركة وطنية هي عصيان للوطن الأم الكبير ، ونكران للخير الذي عاش هو وأسرته في ظلاله ، فحاول أن يسد الطريق أمامي ، وأن يعيدني إلى الخط الذي رسمه لي . . . ولكن هيهات . . . كنا قد مضينا في الطريق . . . وعندما وجد أني أحمل رسالة لا سبيل إلى التخلص منها . . . أحسست أنه أوقع اللوم على نفسه بالاقتران من دم عربي . . . فرضي مكرهاً . . . وسعى الى الوالي في السر ألا يسلط عليّ جنده أو يصيبوني بمكروه . . . على أمل أن يستقيم حالي معه . . . غير أن النور قد وضح ، وأوجدنا نواة طيبة من الشباب ، وحققنا انتصاراً عظيماً بمولد الجمعية الوطنية . . .

(وسكت قليلاً . . . والجميع ينصت في خشوع) .

وكان ما كان من أمر ذلك الخادم التركي الذي وقع صريع دمه عندما حاولت إنقاذ أختي من بين يديه . . .

لم أفكر في الهرب أو الاختفاء عن العيون خوفاً من تهمة القتل تلك . . ولكن كانت الشرطة تراقبني وتتعقبني خفية وجهراً . . . وكان الذي يمنعهم من القبض علي . . . سطوة أبي وقربه من الوالي . . . بينما أصاب كثيراً من رفقائي في الجمعية السجن أو القتل أو النفي . . . وتهمة القتل تلك كانت ستعطيهم ذريعة للتنكيل بي وربما قادتني إلى حبل المشنقة .

ويعلم الله أني ما خشيت على نفسي بقدر ما كنت أفكر في تلك الرسالة التي بدأت السير بها . . وكان علي أن أكملها ، وأمضي بها حتى النهاية . . . لذا فقد آثرت أن أختفي عن مسرح الأحداث ،

وكان في داخلي إحساس بأن النصر سيتوج في النهاية بإذن الله . . . لأن الجمعية تسعى إلى الحق وتهدف إلى الخير . . .

وجئت إلى هنا وتعرفت عليكم ، ووقفت على الارض التي كثيراً ما تمنيت أن أمرغ خدي بترابها ، وأشم رائحتها ، واستنشق هواءها ، فلقد ملأت نفسي حباً . . . وهمتُ بها وجداً . . .

وشاء حظي أن أعيش بينكم بعد أن شرفتموني بالانتماء إليكم ، وسعدت بأيام وليال هي بالنسبة لي بمثابة العمر . . العمر الذي بدأ يوم أن وطأت رجلاي تراب أرضكم . .

ولقد تعلمت منكم معنى الرجولة والشهامة والصدق ، وتعلمت من بساطة العيش بأن كل نعيم زائل ، وأن الذي يعيش في قصر كبير وحوله الخدم والحشم دون أن يعرف معنى الحرية والانطلاق . . . يعيش في وهم وسجن كبير . . .

ما أحسست بإنسانيتي وكرامتي هناك ، قدر ما شعرت بها وأنا مستلق على العشب أتطلع إلى السماء وأرقب النجم ، ومن حولي الأغنام ترعى ، وكلب حراستها يعوي . . .

لقد تبدلت شخصيتي ، وأصابها تحول كبير في هذه البيئة الفطرية النقية الطاهرة . . . فلا حسد ، ولا مكيدة ، ولا غش ، ولا خداع . . . لا فرق بين هذا وذاك . . . تذوب الفوارق وتتلاشى الطبقات . . . فيتبخر النفاق ويظهر كل إنسان على معدنه . . .

أما وأني قد تعلمت كل هذا . . . وكسبت تلك الصفات . . فإني أستميحكم الإذن ، وأطلب من شيخنا وأولي الأمر بأن أتخذ اليوم قراري . . . فأنا لم أعد ذلك الصبي الغرير . . .

* * *

وتطلع إليه الجميع . . والعيون حائرة لمعرفة ذلك القرار . . . وقال الشيخ مفرح :

- أي قرار يا ولدي . . القرار هنا للجماعة . . . وان يد الله مع الجماعة . . .

- أدرك هذا يا ابتاه . . . ولكن القرار الذي ساتخذه يخصني وحدي . . . فهؤلاء العسكر أتوا يطلبونني . . وها أنذا مستعد لهم اليوم . . . وسانزل إليهم وسأواجههم . . فهذه قضيتي . . وسأسويها معهم . . .

وصاح الجميع صيحة احتجاج واعتراض . .

- كيف تقول هذا ؟؟؟ لقد دخلت في حمانا ، فيجب أن نقوم بحمايتك والدفاع عنك . . .

- نعم . . نعم . . . لا بد أن نمنع العسكر . . . لا يمكن ان ندعهم يلقون القبض عليك . . .

- لقد أصبحت واحداً منا . . وهذا قدرك ، وقدرنا معك ، فما ، يصيبك يصيبنا . .

ونظر زيد إلى فارس نظرة ملؤها الحب والحنان والفخر والاعتزاز ، وقال يخاطب الشيخ مفرح : -

- لقد أكرمتم هذا الفتى ، وأحسنتم تطبيعه ، وهو الذي عاش وسط زحام المدينة وغوغائها . . وأرى - والرأي لأهل المشورة - أن تدعوه يجرب رجولته ويثبت أصالته ويقرر مصيره بنفسه . .

- لا . . لا . . يا زيد (انفجر راجح بكل ما في صوته من قوة . . .) إن مصيره سيكون الهلاك على أيدي هذه المجموعة التي لا تفهم سوى الرصاص أو حبل المشنقة . . . إنهم متحالفون مع الموت ،

متضامنون مع القتل فلا أرى أن يغادر هذا الجبل حتى يحكم الله بيننا وبينهم . . .

ـ تبصر في الأمر يا راجح . . . فإني لا أفكر في نفسي فقط . . . . . فبقائي هنا سيجر علينا متاعب كثيرة . . . وسيكبدنا خسائر في الأرواح . . . وربما نفقد اعزاءاً علينا . . وتذكر . . . أن القائد رستم آغا قد وعد بأني « سألقى محاكمة عادلة . . » .

ـ وهل تصدق كلامه ؟؟؟

ـ ربما . . . والخير كل الخير لو أني أنجو من تهمة القتل وأثبت لهم أني ما كنت أنوي قتله بقدر ما كنت أقصد تأديبه . .

أما القضية الثانية فإن لي أملاً كبيراً ، في أن نجري حواراً أوضح لهم فيه افكارنا ، وأبين للسلطات أهدافنا ، ولا بد أن فيهم وطنيين . . يحسون بما نحس . . ويشعرون بما نشعر .

* * * *

* * *

ـ أطرق الحاضرون رؤوساً كانت متطاولة ، وانتحي الشيخ مفرح جنباً مع رؤوساء العشائر وبينهم زيد ، وتناقشوا ، وتجادلوا . . . وصاح واحد منهم .

ـ ولكن . . . واعيباه . . ماذا ستقول القبائل عنا . . . ؟

هل خشينا التهديد وسلاطة اللسان وقمنا بتسليمه خوفاً وهلعاً . .

ـ حاشا الله . . أنا لا أقبل أن تمس الألسن شعرة من شعيرات إبلنا أو غنمنا . . . (صاح فارس محتجاً . .) .

لقد فكرت . . ووضعت خطة أسأل الله التوفيق فيها . . .

« سأقوم بالتسلل ليلاً والكل نيام . . وساخلع ملابس البدو هذه ، وأحلق ذهني ، وارتدي زي اهل المدينة ، وسأندس بـين الجند ، اتكلم لغتهم وأقلد لهجتهم ولكنتهم . . . وسأداهم خيمة القـائد وخنجري مسلط على رأسه . . . » والبقية ستعرفونها عندما ينقلب الجند راجعين ، وبذا نكتفي شر القتال ، ونمنع حرباً لا تبقى ولا تذر . . .

* * *

وهمهم الجميع ، وسرى اللغط . . . فوقف الشيخ مفرح يسكت كل صوت قائلاً : « وفقك الله . . وسدد خطاك . . . » .

٢٧

أشاع القرار الذي اتخذه فارس في نفوس كثير من الحاضرين ارتياحاً وطمأنينة ، إذ سيجنبهم القتل ويمنع سفك الدماء ، ويوفر عليهم متاعب جمة . . . الله وحده يعلم ماذا سيؤول إليه حالهم بعدها . . . وإن كان الأمر لم يخل من تعاطف معه ومع قضيته . .

ظهر ذلك التعاطف والتخوف جلياً على راجح وإحساسه بأنه لن يلقى إلا التعسف والجور . . فقد رأى الظلم في المدينة ـ بعينيه ـ وشاهد تسلط العسكر وبطش الشرطة بالشباب والضعفاء والأبرياء . . .

ونظر إلى وجه فارس فرآه مكتئباً متجهماً . . . فبادره بالكلام : ـ

ـ ما كنت أظن فيك انك تخذلنا وتشذ عن جماعتنا ، وتنفرد باتخاذك ذلك القرار الذي سيكون نقطة تحول في حياتك . . .

ـ بل قل نقطة النهاية . . أنا يا راجح لم اشذ عن الجماعة ولم أخذلكم ، فقد كنتم وما زلتم نعم الأهل والصحاب . . ولكنها النفس البشرية التي لا بد أن تضعف في لحظة ما . . .

ولقد فكرت فيكم أكثر مما فكرت في نفسي . . .

كنتم تعيشون حياتكم في أمان ودعة . . . راضين

مـطمئنين . . . فـإذا أنتم بالسـلاح مدججـون . . . وإلى الهـلاك سائرون . . لماذا ؟؟؟

لأنكم تمسكتم بمبـدأ الحمى والـدفـاع عمن استجـار بكم . . . تعرضون أنفسكم . . . . وأهليكم . . . ومستقبلكم . . . من أجل رجل غريب عنكم ساقته الأقدار إلى مرابعكم . . فأين أنا من هذه العقيدة ؟؟ وأين مني تلك المُثل ؟؟؟ وكيف أرضى لروحي أن تنجو من الموت وأنـا أعرض قبيلة بل قبائل للهلاك ؟؟ وكيف استبيح لنفسي أن تحيا على رفات غيري يموت دفاعاً عني . . لا . . . لا يا أخي . . لست جباناً ، ولست هياباً المـوت . . . وطالما أن الجماعة قدمت ولاءها وإخلاصها للمبدأ ، فأولى بي وأحرى ان اقدم حياتي فداءاً . . تضحية وامتناناً . . .

***

واغرورقت عيناه بالدموع وهو يعانق راجحاً ويشده إليه ، وحاول راجح أن يتمالك نفسه ويسيطر على صـوته الـذي أذبله البكاء ، وهـو يقول : ـ

ـ لقـد فرضت محبتـك علينا جميعـاً ، فالكـل يفخر بـك ، ويشمـخ برجولتك ، ويتباهى بتضحيتك وشجاعتك . . .

وإني أعاهدك الله أني سأمشي الطريق الذي اخترته . . وساعمل على مواصلة حمل الرسالة إن مسّك سوء أو غدروا بك . . .

***

وأطلت سلمى برأسها وهي تستمع إلى الحوار الـذي دار بينهما ، وصدرت منها تأوهات حارة اخترقت قلب فارس . . . فالتفت إليها وعيناه

مخضبتان بالدمع ، وحمرة قانية تكسو وجهه . . .

قالت في صوت ضعيف ، وخطوات راجح تتلاشى عن الأسماع . . .

— لقد فاجأتني . . . وأذهلني قرار رحيلك عنا . . ويعلم الله أن البصر مني زائغ . . . والفكر تائه ، والقلب حزين !!!

— حمداً لله أنك تقدرين على تحديد ماهية ذاتك . . . وتستطيعين أن تتحكمي في عواطفك . . . فما بال من فقد القدرة على التعبير عن نفسه وترجمة ما يعتريه من إحساس !!!

— لماذا إذن بَيَّت أمرك في ليل ، ولم تخبرني عن رغبتك في الرحيل ؟ إن قلبي كان صادقاً معي . . . كان إحساسي ينبهني بين الفينة والأخرى بأنك ستغيب عن شمس حياتي ، وتذوب في معترك الحياة وخضمها ، وكنت أعتبر ذلك الإحساس قاسياً عليّ ، متجنياً على عواطفي . . فإذا بك أنت الذي تقسو ، وويلي من قسوة كالشمس المحرقة لا رحمة فيها ولا ظلال . . . وإذا بك تجفو ، والجفا كما يبدو فيك طبع . . .

— لا تقسي علي يا سلمى ، فأنا أتحمل عذاب الدنيا وتعذيبها ، ولكني لا أطيق أن أراك غاضبة حاقدة علي . . .

— إذن لماذا فضلت الرجوع إلى المدينة ، وصدورنا مفتوحة لك ، وقلوبنا خفاقة بذكرك . . .

— أتودين أن تري فيّ ضعفاً وخوراً ؟؟؟

ألا تحبين أن انتصر لنفسي ، وأحقق ذاتي ، وأكون أنا الذي يضحي بنفسه في سبيل الجماعة بدلاً من أن تضحي الجماعة في سبيلي ؟؟

إن الحب والألفة قد ربطت بين قلبينا . . .

والحب أسمى شيء في الوجود !!

ولكن أغلى من الحب أن يجد الإنسان من يحبه ، يعيشان في سعادة وينعمان بالدنيا ويتمتعان بملذاتها . . يرفرف على عشهما وفاق ووئام وتصدح في أرجائه نغمات طفل بريء . . .

أواه . . . ووا أسفاه . . منذ متى تطيب الدنيا للإنسان وتسعده ؟؟؟

لقد كُتِب الشقاء على كل مخلوق . . وقُدرت له السعادة . .

والسعادة والشقاء يسيران معاً جنباً إلى جنب في خطين متوازيين ، ومغرور من اطمأن الى سعادته ، كما أن الشقي الذي يستسلم الى شقائه . .

الحياة كفاح ، وعلينا ان نكافح فيها ومن أجلها . . وأن نبحث عن ذاتنا !!! عن ماهية وجودنا !!! وكيف نسير !!! وإلى اين نمضي !!!

لقد منحنا الله نعمة العقل ، ولكننا ـ بعقلنا نشقى ـ لأن الحياة كلها تعب . . .

وانظري إلى من سبقونا من الذين شقوا بعقلهم وكدّهم . . لقد تركوا لنا العلم والبحث والمعرفة . . . وأنا قد نذرت نفسي لقضية بلدي . . . وحملت رسالة لا بد أن أسير بها وأمضي في سبيلها . . . وهذا واجب ونداء وطني يتطلب التضحية وإنكار الذات . . .

ولقد عشت حياتي معذباً ، وأمضيت ليالي طويلة مسهداً ، أفكر وأقارن بين حبي وواجبي . . حبي الذي ملأ علي حشاشة تفكيري ، وملك أحاسيسي ومشاعري ، وواجبي الذي ينظر إلى المدى البعيد والمستقبل المشرق الذي ينتظر من يجيء بعدي . . . وكما سعدت بلقائك . . تأكدي . . أنني ساشقى لفراقك وهكذا الدنيا . . نزول وارتحال . . .

ولكنني أعدك إن قدر لي عيش وكتبت لي نجاة أن اعود إليك ، وأن يجتمع شملنا ، وتصفو حياتنا . . .

ومسك يدها بكلتا يديه . . وطبع على جبينها الأغر قبلة حارة ، واستدار مسرعاً .

* * *

ومشى إلى الصخرة التي كان متحصناً فيها . . وبعد أن استبدل ملابسه قام يودع القوم . . وارتمى على صدر خاله يضمه ضمة شعر فيها بحنان الأبوة ورقة الأمومة . . ومضى يغالب البكاء ولسانه يردد . . « أرفع إلى أمي التحيات . . واسألها الدعاء ، وبلغ أختي السلام . . وأطلب منها أن تسامحني . . والله اسأل أن يجمعني بكم ، ويلم شملنا ، ويحقق أهدافنا . . » .

٢٨

اتجه فارس إلى غرب الجبل . . وأخذ يقفز في خفة وحذر إلى السفح البعيد . . ومن هناك التف حول الجبل الصغير . . ثم أطل برأسه على الوادي فرأى الجند يسبحون في نوم عميق مطمئنين إلى الهدوء الذي ساد المنطقة ، والى الحراس الساهرين . .

* * *

وتبين خيمة القائد المضيئة والتي وقف على بابها جندي شاك السلاح . . .

وبدأ ينفذ خطته . . زحف على بطنه وخنجره بين أسنانه حتى وصل إلى هدفه من الخلف . . . وبرباطة جأش ، وهدوء أعصاب ، غرس الخنجر في الخيمة فشق فيها فتحة كبيرة . . وما هي إلا لحظات حتى كان الخنجر مسلطاً على رقبة رستم آغا . . ونور خافت ينبعث من الركن القريب على وجهه . . .

وقبل أن يفتح فمه . . كانت يد فارس الثانية تطبق على فكيه . .

وقال في همس : -

ـ أنا نديم . . . إياك أن تبدي مقاومة . . . اريد ان نتفاهم معـاً في هدوء . . .

ـ ولكن . . . كيف دخلت إلى هنا ـ بحق السماء ؟؟؟ حقاً . . إنك مجرم محترف !!! .

ـ أرجو أن يخيب ظنك في . . . ما أنا إلا رجل يبحث عن الحقيقة ، ويسعى وراء العدالة . . .

ـ أية حقيقة ؟؟ واية عدالة ؟؟ . . العدالة هي التي تبحث عنك . . ولقد كلفتنا الكثير ، وأجهدتنا في العثور عليك . . وها أنت وقد حملتك قدماك إلي . . . فانزل هذا الخنجر وازحه عن رقبتي ، والا احاط بك الجنود وقطعوك ارباً . . . .

ـ إذا وعدتني وعد الحر الشريف بأن تنفذ ما سنتفق عليه . . .

ـ ومن قال إني سأتفق على شيء معك . . أنا هنا كي أقبض عليك،وقد أرسلتك العناية الإلهية إلينا كي نسلم من حرب بيننا وبين القبائل التي أدعت أنها تحميك وهي في واقع الحال لا تستطيع أن تدافع عن نفسها . . ولا بد أن الخوف والهلع أصابهم ، فلفظوك كالنواة ـ . . .

ـ إذا لم تكف عن التعـرض لأشراف الـرجال فـإن منيتـك ستكـون قبلي . . . (وغرز رأس الخنجر بقوة في رقبته حتى أحس بحرارة الدم تـوقظه من نشـوته . . .) . بـاختياري جئت إليـك ، ولـوحـدي اخترقت حراسك . . . ولقد أقسمت أنا على شيخ القبيلة بأن يتخلوا عن حمـاهم . . وآليت عـلى نفسي منـع صـدام مسلح بـينهـم وبينكم . . . ولقد أمضيت ساعات طوال في جدالهم واقناعهم بأن أتخـذ القرار الـذي يحدد مصيـري . . . لم اجيء إليك خائفـاً أو متهيباً .. وأنت الآن في قبضة يدي، وتحت رحمتـي .. ولـو كنت

أقصد شراً ما أيقظتك وطلبت التفاهم والتفاوض معك .. ولـو كان القتل طبيعي ، والخيانة ديدني لكنتَ أنت الآن في عداد الأمـوات ، وكنتُ أنعم ورفـاقي بلـذة الـنصر .. (ثم التقـط أنفـاسه .. وواصل حديثه في صوت هادىء) ...

هل تريد أن تسمع . . أم ان غطرستك وكبرياءك يمنعان قائداً عظيماً مثلك من عقد اتفاق شريف ؟؟؟

ــ يوم لك ويوم عليك . . ويبدو أنك ستكسب الجولة الأولى . . . هيا قل : ماذا تريد فإن اعصابي لا تحتمل التهديد !!

ــ هل يقف أمامي رجل منضبط ، شريف في كلمته ، وفيّ في وعده ، أمين في معاهدته ؟؟؟

ــ تستطيع أن تقول ذلك . . .

ــ إذن مد يدك وعاهدني على عدم الخيانة ، وعدم التعرض لي بأية أذية حتى اقف أمام القضاة والقى محاكمة عادلة كما وعدت . . وأنت قائد هذه السرية الذي يحميني !!! . .

ــ وهل تعد أنت بعدم محاولة الهروب أو التمرد ؟؟

ــ إذن اتفقنا . . .

شيء آخر . . سنمضي راجعين إلى المدينة قبل شروق الشمس ، فآمر جندك بالاستعداد للرحيل ، وحرّضهم بعدم التعرض لمن في الجبل أو البوادي . . يتركون المضارب دون احداث أية أضرار أو تخريب .

ــ سأفعل . . والآن أزح هذا الخنجر . . . و . . . .

ــ دعني أنظر جراحك ، واضمدها . . .

* * * *

وعندما استدارت الخيول متجهة صوب المدينة . . رأت سلمى وهي تقف على أقرب صخرة تحميها من العيون ـ فارساً ـ راكباً خيله محاطاً باثنين من الجنود ، وأمامه امتطى رستم آغا فرسه يمشي به تيهاً واعتزازاً . . وقالت تحدث نفسها : ـ

ـ . . . لله درك يا فارس . . عشت مكافحاً مناضلاً ، وستموت شجاعاً مقداماً . . إن قلبي يحدثني بأنك تُساق إلى مصير محتوم ، ولا زلت أتذكر ما كنت تقوله لي . « بأن الحياة بلا هدف . . ليست حياة . . . »

ولقد قضيت أيامك ، وأفنيت زهرة شبابك في سبيل الهدف الذي تسعى إليه . . .

ووا حر قلباه . . ستموت دون أن ترى غرستك وقد نمت وكبرت . . .

لم تخف عيناك مخاوفاً كنت تحاول كتمانها عني وكنت تعرف أنها النهاية . . فآثرت أن تمشي إليها مرفوع الرأس ، عالي الجبين . . .

لقد تركت في قلبي جرحاً لا يندمل إلا برجوعك ، وخلقت في نفسي ذكريات لا تستطيع الأيام او الليالي محوها . . .

ولقد تعلمت منك العزيمة والاصرار . . لذا سانتظر يوم عودتك ، وسأعيش على خيط واهن من الأمل . . .

ولكن . . . وأحست بلهيب يلسع خدها . . وقالت وعلى شفتيها ابتسامة نصر : « أحمد الله أنك لم تر دمعات حبيسة . . فمثلك لا تبكيه الأنثى ، بل تقدم روحها فداءاً . . . » .

٢٩

أخذت قافلة الجند بعددها وعتادها تسير صوب المدينة فرحة جذلانة بانتصار قائدها ، وحنكته ، وحزمه الذي حقن دماءهم وأنقذ أرواحهم من قتال شرس . . .

واقترب رستم آغا من نديم يسأله إن كان يحس بتعب أو يشعر بعطش !!! . . ثم أمر الجنديين المكلفين بحراسته ان يتأخرا عن محاذاتهما . . .

***

وبدأ القائد حديثه مع فارس . . .

ـ هل سمعت عن اسمي . . . أو عرفت عني شيئاً من قبل ؟؟؟

(نظر إليه فارس وفي عينيه بريق احتقار ، وعلى شفته ابتسامة سخرية . . .) لم يحصل لي شرف ذلك . . .

ـ حسنا ـ ساتحدث إليك باللغة التركية ليسهل علي التعبير ، وحتى نستطيع أن نتفاهم . . .

ـ كما تريد . . .

ـ قل لي أولاً . . اخبرني . . كيف وقعت جريمة القتل ؟؟؟

ـ أنا لا أسميها جريمة . . بل دفاعاً عن الشرف !!ـ

ـ ولماذا هربت إذن ؟؟؟

ـ هذا حديث يطول . . وأرجو ألا أكون في محاكمة سرية الآن !!!

ـ لا . . لا . . . لقد قلت لك حديثاً . . حديثاً أخوياً . . .

(ورق صوته . . . وهدأت قسمات وجهه . . .) ما أردت إلا مساعدتك بعد أن تأكد لي بإحساسي العسكري وشعور المسئول بأنك رجل شهمٌ ، شجاع ، مقدام ، وأن الذي فعلته كان حقاً دفاعاً عن شرف أُختك . . كما أن جرأتك وتضحيتك ومنعك للقتال جعلني أزداد أحتراماً لك وتقديراً لبسالتك . . . ورحم الله طاهر أفندي الأبيض لقد كان رجلاً فذاً ، كريماً ، سمحاً ، جواداً ، عطوفاً . . .

ـ يبدو أنك تعرف والدي . . .

ـ (وصدرت من رستم آغا آهة وأنّة) . . . كل المعرفة ، بل قل إني أكنّ له من الاحترام والتقدير ما لا يخطر ببالك ، وأحمل له في جنباتي عرفاناً بالجميل لا يمكن أن يمحيه الزمان . . . كما أني مدين له بهذا الزي العسكري ، والنياشين التي تراها ، ولولا مساعدته لما كنت الآن سوى جندي صغير . . .

ـ وهل لي أن أعرف تفصيل ذلك ؟؟ .

ـ أفضل أن يبقى هذا سراً دفيناً بعد أن رحل إلى جنات ربه . . . المهم الآن . . أن نتدبر أمرك ، وأن نعمل سريعاً على إثبات براءتك ، (وسكت قليلاً . . ثم تابع حديثه في حزم . .) . وليكن معلوماً لديك أني سأحاول مساعدتك لا لشخصك . . فأنت إلى جانب اتهامك بالقتل مطلوب لقضية أكبر وأخطر . . .

ولكن الذي يهمني أن تثبت براءتك وتبرهن على أن قتلك ذلك الوغد كان دفاعاً عن النفس وعن شرف الأسرة الذي أرجو أن يظل نقياً طاهراً بعد أن عاش رب الأسرة حياة العز والكرامة والشرف ..

وإذا ما تم ذلك ـ ورأجو ان يتم ـ عليك وحدك تبعية ما بدأته من انخراطك في التنظيم السري . . وسأمهلك يومين تبحث فيهما عن ضالتك وتهتدي إلى رجل كان يعمل في خدمتكم اسمه (جودت سري) فقد أدلى بشهادة في صالحك بعد مغادرتك المدينة وأخبر الشرطة أنه رأى بعينيه ـ مقصود أو غلو ـ القتيل يحاول الاعتداء على أختك . . .

ولقد تحريت عنه . . فوجدته يعمل ـ كندرجي ـ في نهاية السوق . . . ووفقاً لمعلوماتي الخاصة التي جمعتها من مصادر موثوق بها ـ عندما صدرت الأوامر بتكليفي بالبحث عنك والقبض عليك ـ فإن ملف القضية التي تحوي اعترافات الشاهد قد أخفته يد عابثة محاولة للقبض عليك بتهمة القتل والإيقاع بك . . حتى إذا مثلت بين أيديهم عمدوا إلى محاكمة صورية تشل حركتك وتحد من نشاطك السياسي وتقضي على نضالك وكفاحك . . .

ـ إذن علي أن ألقي جودت سري وأحضره ليدلي بالشهادة أمامي وأمامهم . . .

ـ نعم . . عليك بالإسراع في ذلك . . . وأفضل أن تتجه إلى الناحية الجنوبية من السوق ، وسأدبر أنا أمر تخلفك بأن أعطل مسيرة القافلة يومين . . أعطي فيها الجند فرصة إقامة احتفال بالنصر الذي حققناه والدماء التي حقناها . . . غير أني سأعمد إلى حبسك حبساً إنفرادياً ـ صورياً ـ في خيمة منعزلة ، أقيم عليها اثنين من رجالي الأشداء

المخلصين . . وعليك أن تتسلل منها ليلاً ، وتمضي إلى غايتك ، ثم تعود متسللاً إليها كما فعلت عند دخولك علي . . وسيكون الجنديان على علم بخروجك وعودتك . . . (ونظر اليه نظرة شاملة . . .) . . . ولا إخالك غافلاً عن هذه المخاطرة التي سأقدم عليها . . كما لا يخامرني شك في عودتك وبرك بوعدك . . .

— كن على يقين من ذلك . . وتأكد أني أشعر نحوك باحترام لم اشعر به نحو أي من العسكريين الذين ينتمون الى الوالي . . .
غير أني لا بد أن أصارحك أني وفي خلال بحثي عن الخادم سأقوم بزيارة قبيلة الصفا لرؤ ية أمي وتقبيل يدها والسلام على أختي . . .

— وهل كنت سامنعك من ذلك يا ولدي . .
ولي رجاء . . أن تبلغ هند هانم السلام ، وقل لها بأن ابن السيدة « أوقزيدة » وصيفتك التي كانت ترافقك في اسطامبول يهديك السلام ، ويدعو لك ولإبنتك بالصحة والهناء . . .
وسر على بركة الله يا ولدي . . وعليك بالحذر وعدم الاحتكاك بالشرطة أو غيرهم ، فالكل يبحث عنك . . . فأنت اليوم البطل المجهول في أعين الناس ، والزعيم المترقب ، والصيد الثمين عند الجنود . . .

وحاول نديم أن يتذكر السيدة أوقزيدة ـ والدة رستم آغا ـ ولكنه كان في شغل شاغل وهمّ أكبر من أن يتذكر . . .

وجلس يتحرق شوقاً إلى الظلام يرخي سدولة . . .

* * *

٣٠

تحسست هند شعر ابنها بأصابع مرتعشة ، ولثمت بشفاه جافة وجهه . . وطبعت قبلة حارة بين عينيه ، والدموع تنهمر من مقلتيها . . والقلب يخفق بين جنبيها . . ونار الشوق تضطرم في صدرها . . .

وارتمى نديم على صدر امه يدفن رأسه فيه ، ويضمها إليه ، وهو يجهش بالبكاء كطفل رضيع . . . وكأنه يروي عطش الليالي وجفاف الأيام التي مرت عليه . . .

ووقفت وجدان حيرى . . . وقد انعقد لسانها ، وتقاطرت الدموع من عينيها ، وأصابتها رعشة لم تهدأ حتى أخذها أخوها بين يديه ، وضمها في رقة وحنان إلى صدره وهو يقول : ـ

ـ . . . « . . . لا عليك يا أختاه . . . اطمئني بالاً ، واهدئي قلباً ، واستريحي نفساً . . فأنت اختي ، قطعة من لحمي ودمي . . . ولئن كان الغضب قد أعماني ، وأطارت صوابي صرختك التي نفذت إلى قلبي كالسهم ، وامتدت يدي عليك . . . فإني استسمحك الآن ، وأرجو أن تغفري لي قسوتي . . . فلطالما تمنيت لو أن ذراعي شلت قبل أن تنهال عليك بالمعول ، أو أن عيني لم تريا ، وأذناي لم

تسمعاً . . . ولكن . . . هذا قدري ، وذاك حظك . . . ولقد دفعت ثمن تسرعي . . فلطالما تعذبت ، ولطالما مشيت في صحراء قاحلة ، واكتويت بنارها ، وذقت مرارة الحرمان ، وشعرت بقسوة الغربة عن أهلي وصحابي . . .

ليالي طوال كنت أناجي فيها القمر ، وأرقب النجوم ، وأبثها أشواقي ، وأحملها سلامي لكم ، وأناشدها السؤال عنكم . . ، . . . وها أنا ذا الآن أمامكم ، بي شوق عظيم إليكم ، ولهفة إلى سماع أخباركم ، وحاجة إلى النظر إليكم والتطلع إلى وجوهكم . . . و . . . . » .

وارتمت وجدان ـ وهي تشهق بشدة ـ على صدره . . . فأحست بدفء حنانه وصدق عاطفته . . .

وبصوت متهدج . . . وعيون مكسورة غلبها الحياء وعلتها موجة من الذل جاء صوتها في أذنه كالهمس : ـ

ـ « سامحني . . . سامحني يا أخي ، ويا صنو روحي وتوأم فؤادي . . .
لكم أشقاني أن أكون سبباً في بعادك عنا !!!
وكم عذبني ضميري لحماقة ارتكبتها وأنا أتذكر يدك القوية تنهال على ذلك الخائن والدم يتناثر من رأسه .. ويالهول ما أتذكر .. فيا طول عذابي ، وقسوة الليالي على قلبي . . .
الله وحده يعلم بالوحدة التي تَلُفُّني . . .
أياماً وليالي طوال عشتها وأنا أكتم حزني . . .
وشهوراً جافة قاسيت منها الألم ، وعضيّت فيها أصابع الندم . . .
وليس هناك من يجيب . . . ولا من يرحم . . .
حتى دموعي جفت ، وحواسي تيبست ، وقلبي تحجر . . .

أواه يا أخي . . . ما أفظع أن يشعر الإنسان بخطئه ، ويحس بندمه . . . فيحاكم نفسه ، ويقسو عليها . ناهيك عن قسوة الزمان ، ونظرة الناس له واحتقارهم لمشاعره وتجنّبهم مخالطته . . .
هل تدري كم فكرت في الموت ، وتمنيته ، ولولا خوفي من أن تتعاظم أحزانكم ، ويشمت فيكم من يشمت ، لكنت قدمت روحي تضحية ونفسي فداءاً . . . فلقد كنت أعيش ويملؤ ني إحساس بأني ميتة في أعين الناس ، ميتة أمام ضميري . . .
وويل للفتاة إذا ما مات إحساسها ، وأقام عليها ضمير يؤنبها ، وامتلأ قلبها حسرة وندماً . . . » .
وغلبها البكاء . . . فانفلتت من بين يديه تجري .

***

ونظرت الأم نظرة تفيض حناناً وشوقاً ، في همس : - . . .

- لكم تسعدني رؤ يتك ، ويدخل السرور على نفسي رجوعك إلينا ، أنا لا أصدق أنك هنا بين يدي يكتحل ناظراي بوجهك ، وتتلمس أطرافي شعرك ، . . . أواه . . . ما أقسى الفراق ، وأشد ألمه ؟ وأحمد الله العلي القدير أن منحني قوة استطعت بها التجلد على فراقك ، وأشكره جل وعلا أن أمد في عمري كي أراك قبل موتي . . .
- فأمّك يا ولدي قد تضافرت عليها المصائب ، وأنهكتها الأيام . . ففجعت في أبيك بعد أن كان عليها أن تتجمل بالصبر بعد رحيلك ، ونزلت عليها نائبة الزمان يوم أن لملمنا عارنا وطُردنا من دارنا وخرجنا مشردتين . لا عائل لنا ولا سند ، ولا قوة ولا مدد . . . فجئنا إلى

اخوالك والقلوب تقطر أسى ، والوجوه مكللة بالعار والخجل . . .
وكان علي ـ أنا وأختك ـ أن نصبر على شظف العيش وجور الزمان ، وأن نقبل بالذل ونرضى بالحرمان . . . غير أن أملاً واحداً أبقى عليّ وشد من أزري . . . هو أن اراك وأن اضمك الى صدري ، وأن اطمئن عليك . . . أما وأن الله قد حقّق مطلبي . . فإني لا آسي على شيء ، ولا اندم على جاه أو مال . . . فيا نفس طيبي عيناً ، ويا موت أقبل . . فلم يعد لي في هذه الدنيا رجاء . . .
وهاك يا ولدي . . تسلم أمانتك . . خذ أختك . . . احمها من قسوة الزمان ، وصنها في عش الأمان ، وارعها ، وحاول أن تخفف عنها شدة أحزانها ، ووطأة همومها . . فهي بعنايتك جديرة ، وباهتمامك أحرى . . .
وأنت اليوم رب الأسرة ، وعائلها ، وعليك أن تعوّضها ما فاتها . . وأن تنهي أتراحها ، وتقيم أفراحها . . . » .

***

أخذ نديم يد أمه ولثمها ، ونظر في عينيها المليئتين بالدموع ، وأراد أن يتكلم . فتلعثم لسانه ، وأراد أن يفصح عن مهمته العاجلة فلم يجرؤ على تحطيم آمالها في لحظة سعادتها . . وآثر الصمت . . وفي نفسه هاجس . . « عندما ينبلج الصبح ، ويبزغ النور يأتي فرج من عند الله . . . » .

٣١

ترددت أصداء كـل كلمة قـالتها الأم في رأس نـديم . وتزاحمت الأفكار التي اخذت تدوي عالية صارخة دون أن ترحم فيـه ضعفاً ، أو ترأف بحاله شفقة . . .

فكيف يتسنى له أن ينهي أتراح أخته ويجدد أفراحها ، وهو الذي لم يَبْق بينه وبين قضبان السجن سوى ساعات محدودة . . .

إن الأفراح بالنسبة له قد انتهت وولت . . . وسيخطو أولى خطوات التعاسة والشقاء برجليـه عندمـا يودعهم ويـدير ظهـره لهم ربما إلى غـير رجعة . . .

وأخذ يقاوم تلك التيارات التي أطبقت عليه من كل جانب . . . وجفا عينيه النوم ، وأقلق هدوءه الأرق بعد أن استرخت اعضـاؤه . . واظلمت بصيرته الوساوس السوداء التي تتابعت عليه . . . فلم يعد قادراً على تحسس النور أمامه . . . وأصبح يتخبط في متاهات لا هوادة فيها ولا رحمة . . .

وقام يمشي يستنشق هواءاً نقياً ، والليل يتمطى في ثقل ، والفجر يتهـادى في بطء ، ونسمة بـاردة تهب عـلى وجهـه . . . فهـدأت نفسـه

قليلاً . . ووقف على تل من الرمال فسرت برودته في جسمه ، فاتكأ على جانبه . . . وأخذته سنة من نوم . . .

***

وأحس كأنه يسمع صوتاً محبباً إلى نفسه صداه . . ففتح عينيه وخيط رقيق من بزوغ الفجر يتسلل إلى الكون . فلم يستبن وجه راجح وكأنه في حلم حتى إذا أفاق وقف يُسلم على خاله الذي قال :

ـ الحمد لله الذي نجاك وانتهى بك إلى هنا !!!

ـ هل أطلقوا سراحك ؟؟ ـ قال راجح والكلمات تسبق بعضها ـ لقد تركتنا وقلوبنا وجلة عليك ، ومآقينا تقطر دماً على فراقك . . . ولم نطق صبراً . . فقررنا أن نتعقبك ، وأن نستقصي أخبارك من قريب أو بعيد . . ولكن عندما عسكر الجند بالقرب من مشارق المدينة وبدأ القوم وكأنهم يولمون أو يحتفلون . . لم ندر ماذا نفعل !!!

واقترح زيد أن نتريث يوماً أو يومين نزور فيها والدتك ونسلم على أختك ونطمئن القوم . . . ثم نعود إلى مواصلة مهمتنا . . . والآن أرو لنا أخبارك . . وكيف وصلت إلى هنا ؟؟؟

(وجلس راجح إلى جوار زيد ، والشوق إلى معرفة الحوادث يكاد يقفز من وجهيهما . .) .

ـ لقد أخبرني القائد رستم آغا ـ بعد أن تحسنت علاقاتنا ـ أن واحداً من خدم أبي قد قام بالاتصال بالشرطة وأخبرهم عن حادث القتل ، وأدلى بشهادة قد توصلني إلى البراءة . . غير أنه أضاف أن يداً عابثة أخفت ملف القضية برمتها . . . وأن علي إن رمت براءة أن أحضر الخادم إلى المحكمة للإدلاء بالشهادة مرة أخرى حتى لا تؤخذ هذه القضية بالأخرى فيصدر حكم قاس .

ـ وأين هذا الخادم ؟؟ قال راجح . . . يجب أن نعثر عليه !!!

ـ قال رستم آغا ـ وقد رغب في مساعدتي إذ كان صديقاً للمرحوم أبي ـ إن الخادم يعمل اسكافياً ـ في السوق ، . . .
ولقد جئت للسلام على أمي واختي ، وسأذهب بعد تناول الأفطار للبحث عنه وإقناعه بالإدلاء بالشهادة يوم المحاكمة . .

* * *

ونظر إلى خاله ، ثم إلى راجح . . نظرة امتنان وقال :ـ

ـ « الحمد لله الذي ساقكما في هذه اللحظة . . لقد كنت أعاني من الوحدة والهموم مما دعا النوم أن يجفاني . . .
عليّ أن أعود إلى معسكر الجند مرة أخرى بعد أن القى ذلك الإسكافي . . فلقد وعدت القائد بذلك ، بعد أن قدم لي مساعدة لا ينساها حر أبداً . . .

ـ ولكن إن عدت يا نديم فربما يطبق عليك نظام الوالي ، وتتم المحاكمة بصورة عاجلة ويُقضى على آمالك . . (قال زيد وفي صوته رنة حزن وأسى . . .) .

ـ لا بد لي من العودة يا خالي حتى أثبت براءتي من القتل ، وبراءة أختي من العار ، وأظهر شرف العائلة . . . وإذا ما تحقق ذلك فإني أتوق إلى المحاكمة الأخرى التي تتهمني بالتنظيم السري . .
ولكن . . علينا بالحيطة والحذر . . وأن نتدبر أمرنا جيداً . .
فسأتوجه إلى المدينة للبحث عن جودت سري ومقابلته ، ثم أعود إلى المعسكر . . .
وعليك أنت يا خالي مهمة متابعة قضية المحاكمة واصطحاب الخادم

إلى قاعة المحكمة في اليوم المحدد وسأبلغه بذلك . . وحذار من أن يعرف أمره أحد حتى لا يصاب بسوء ، فهو الشاهد الوحيد الذي يثبت براءتي . . .

(وسكت قليلاً . . ووجه بصره نحو راجح . .) .

وأما أنت يا راجح ، فأمامك مهمة اصعب . . .

— قل . . . واطلب ما شئت . . . فأنا لك فداءً . . .

— أرجو ان تذهب وتتلمس أخبار الجمعية ، وتتعقب أعضاءها وإن حصلت على « جابر بن ضاحي » أو عرفت مكانه فعليك بمقابلته وإخباره عما دار ويدور الآن بيني وبين رجال الأمن . . .

وعليك أن تستقي منه المعلومات الجديدة وتسربها إليّ حيثما أكون . . .

— سأفعل يا فارس . . فلا تقلق . . والله يرعانا ويشملنا بعنايته وسيكون النصر حليفنا إن شاء الله . .

* * *

وسكت راجح قليلاً . . ثم أردف وفي صوته بحة حب . . .

— كنت أريد . . أريد أن احدثك في أمر شغل فكري وملأ حواسي ، وأرق سكون ليلي ، وحيرني ساعات من نهار . . .

— هل هذا وقت الحب والغزل يا راجح ؟؟؟

— نعم يا فارس . . إنه الوقت الذي رسمه القدر ، فمن يدري متى تجمعنا الظروف مرة أخرى . . . أنا ـ وأنت ـ وزيد ـ و . . . وجدان . .

أريد اختك زوجة لي . . . أريد وجدان . . إنه لشرف كبير في أن

احظى بمصاهرتكم والانتماء اليكم . .

ـ الأمر لله يا راجح . . . إنني أعاني من الأفكار أشدها وأصعبها في تحديد مسار الحياة . . وأنت تبحث عن زوجة . . (وفجأة يتذكر كلام أمه . . .) ولكن ما دمت ترغب في اختيار طريق حياتك . . وما دمت ترغب في اختي زوجة فلا أرى ما يمنع شريطة أن تعمل على سعادتها . . وشريطة موافقة خالها زيد ووالدتها . . وأخيراً . . . لا بد أن ترضى بك زوجاً . . .

ـ لقد تحدثت مع خالها قبل اليوم . . فأبدى من الارتياح ما شجعني وطمأنني . . .

ـ إذن تعال قبل رحيلي . . لنر ونسمع ما تقوله المرأتان . . وعليّ بان أحذرك . . أنه إذا وافقت أمي فسترفض وجدان طلبك . . أما إذا أبدت عروسك حياءاً وأطرقت خفراً ودلالا ، فأرجو أن تعلن رفضك هند هانم . .

ـ سوف نعالج الأمر ونصل إلى بر الأمان . . عندما يغيب عنا محياك !!!

* * *

٣٢

اتفق الرجال الثلاثة على ألا يخبروا المرأتين عما انتهت اليه قضية نديم وما سيتبعها من أحداث . . . واكتفوا بأن أدخلوا السرور على قلبيهما بالموافقة على زواج راجح من وجدان .

وما لبث أن قام نديم يطلب الإذن بالخروج ، ولم ينس أن يطلب من والدته وهو يطبع قبلة حارة على جبينها بأن تدعو له بالتوفيق في مهمته التي قد تستغرق وقتاً طويلاً يغيب فيه . . . وكتمت الأم صرخة احتجاج وهي تودعه وقلبها يحدثها بأمر ، ومخاوفها تزداد بأنها ربما لن تلقاه أو تراه مرة ثانية . . .

وجرت وجدان إلى أخيها تضمه إلى صدرها وهي لا تدري ماذا تقول ، واكتفت ودموع الفرح في عينيها بأن تهمس في أذنه : « قلبي معك دوماً . . . »

وخرج مسرعاً لا يلتفت خلفه . . والدموع تجري من عينيه بعد أن حبسها طويلاً . وطلب من خاله وراجح بأن يبقيا في القرية ليمضي هو إلى

المدينة لمقابلة جودت سري ، وحتى لا ينكشف أمره إن هما سارا معه . . . فوافقا على رأيه . . .

* * *

استلقى نديم على ظهره في الخيمة التي أعدها له القائد بعد أن تسلل إلى داخلها في خفة وحذر . . . وغالبه النوم الذي جفاه ليال ثلاث . . . وقبل أن يغمض عينيه صاح في الجندي المكلف بالحراسة أن يبلغ قائده بعودته . . . وطلب منه عدم إيقاظه حتى الصباح . . .

* * *

واستدار يبحث عن ذاته ، ويرتب أفكاره بعد أن أحس أن الأحداث قد أتعبته والمصائب قد أنهكته . . . .

— « . . . أين أنا ؟؟ . .

وأين مني ذلك القصر المنيف . . والعز والجاه ؟؟ . .

وأين أنت يا ضاحي . . ويا صحبي ورفقاء عمري ؟؟ . . .

أين مني ذلك الحماس الذي ملأ نفسي ودفعني إلى معترك الحياة النضالية ؟؟؟

أين قضيتي ؟؟؟ . . . اين ؟؟؟ . . .

واين انت يا شيخ مفرح ؟؟ يا صاحب الفضل ، والشهامة ، والمروءة . . . يا من تعلمت في أرضه معنى العزة والإباء ، والعزيمة والإقدام !!!

وأين أنت يا سلمى ؟؟؟ . . يا من أنرت لي الطريق ، وأضأت لي شمعة في حياتي خبأها الزمن واطفأتها يد الأقدار . . . » .

أنا هنا . . في هذه الخيمة المظلمة . . حبيس نفسي ، ورهين الجندي المكلف بحراستي . . . لا أدري ماذا سيحل بي ، ولا أعلم متى تكون نهايتي . . . إن كانت منيتي قد قربت فإني سوف لا أندم على دنيا تركتها خلفي . أو عز أو جاه بعدت عنه بإرادتي . . . ولكن . . .
أواه ربي . . . . هل تمد لي في عمري حتى أحقق أمنيتي وأرى البلاد وقد استعادت حريتها وشفيت من سقمها ودائها . . .
أناشدك ربي أن تعجّل في براءتي كي ترفع عائلتي رأسها عالياً ، وتشمخ في عز وشرف . . .
أحمدك ربي أن هيأت لأختي رجلاً كريماً شهماً يحميها ويؤنس وحدتها . .
وأحمدك ربي على تصفية القلوب وإزالة الضغائن بين والدتي وعشيرتها وأهلها وأخيها . . .
« وأنت يا سلمى . . . من لكِ بعد رحيلي ، وكيف تتلقين النبأ السيء ان وقع لي مكروهاً . . . لكِ الله . يا فتاتي . . فأنت أجمل وأنبل ، وأكمل وأعقل من رأيت من فتيات . . . » .

* * *

- ثم ماذا عني . . أليست لي أحلام الشباب . . . ألا أطمع في أن أعيش لنفسي ، وأن أبني مستقبلي ، وأتخذ لي رفيقة عمر تشد من أزري وتكون عوناً لي في دنياي المتعبة . . . نربي أطفالنا . . ونفرح بهم . . .

* * *

ولكن . . . من نذر نفسه لخدمة بلاده ، ووهب روحه فداءاً لها وثمناً لحريتها . . . عليه أن يضحي بسعادته وملذاته الشخصية ، وأن يضعها قرباناً للمستقبل المشرق الذي يتلألأ في أعين الأجيال التي تأتي . . . ويمهد الطريق أمامهم . . . فلا حرية بلا ثمن ، ولا استقلال بدون تضحية . . . وكم من شعوب قدمت أرواح أبنائها باسم الوطنية وفي سبيل نصرة الحق وإعلائه . . . وما أنا إلا شمعة تضيء وتحرق نفسها لتنير دروب الآخرين .

* * *

واصطف الجند ، واتخذ كل واحد أهبته واستعداده للمسير . . . وكلف القائد الجنديين المرافقين للمتهم بتشديد الحراسة . . .

وتقدم يقود السرية . . . حتى إذا أشرفت على أبواب المدينة كانت هناك جموع غفيرة تشهد الانتصار . . . مُتَطَلِّعة إلى رؤية ذلك البطل المجهول الذي سعت إليه السلطات ، ورصدت المكافآت لمن يقبض عليه — حياً أو ميتاً ...

وهمس رستم آغا في أذن نديم بعد أن تخطى الحواجز البشرية : -

— هيىء نفسك لملاقاة الصعاب . . . وعليك أن تتجلد بالصبر وتتحلى بالحلم وضبط النفس أمام من سيلقونك . . . وأن تتحمل إهاناتهم وتعسفهم . . . فالقلوب مليئة بالحقد عليك ، والنفوس قد سئمت تعقبك وانتظارك . . . وسأعمل من جهتي على تخفيف حدة التوتر والغضب لدى سلطات الأمن وسأعترف لهم كيف أنك بحكمة وعقل استطعت أن تحقن دماء القبائل والعسكر ، وأن تمنع نشوب قتال عنيف بينهم ، وأنك قمت بتسليم نفسك طائعاً مختاراً ...

وسأحرص على أن تكون محاكمتك بتهمة القتل منفصلة عن التهمة الأخرى الموجهة اليك . . .

وعندما تصلني أخبار عن موعد المحاكمة . . . سأرسل لك مندوباً يحملها إليك ـ وكلمة السر بيننا هي ـ أوقزيدة ـ . .

ـ وإن تك كريماً معي . . . أرجو أن تبعث من يبلغ خالي زيداً في قبيلة الصفا بموعد المحاكمة حتى يقوم بإحضار الشاهد جودت سري . . .

ـ سأفعل . . . وستكون هذه آخر مرحلة في تسديد الدين والوفاء لوالدك . . . (ثم أردف وفي صوته رنة أسى وحزن . .)

شكراً يا فارس على إبقائك على حياتي ـ وإن كانت آثار الخنجر لا تزال في رقبتي . . .

أما وأن الوقت قد حان لكي يودع أحدنا الآخر . . أرجو لك التوفيق في حياتك . . .

(واستدار راجعاً وهو يهمهم . . . ـ هذا . . إن بقيت لك حياة . . .) .



٣٣

عقدت المحكمة جلستها في اليوم الموعود . . . واتخذ كل شخص مجلسه ، وأحضر المتهم ـ ومشى هادئاً رصيناً لا يلتفت إلى أحد . . . وجلس على كرسيه المخصص . . .

وامتلأت القاعة بالحاضرين ومن بينهم زيد وراجح والشيخ مفرح وسارح وذبيان وعدد كبير من أفراد القبائل . . .

وجيء بالشاهد جودت سري . . وهو وجل قلق خائف مترقب ، ووقف الادعاء يتلو « الفرمان » الذي وجه إلى المدعو نديم عبد القوي الأبيض تهمة القتل عمداً مع سبق الإصرار . . . وطالب بالعقوبة القصوى التي تقضي بإعدامه رمياً بالرصاص . . .

ووقف الدفاع يبرر قتل المجني عليه . . وأثبت أنه كان دفاعاً عن الشرف ووقف الشاهد يدلي باعترافاته . .

ثم رفعت الجلسة للمداولة . . وإصدار الحكم . . . والأعناق تشرئب ، والقلوب تخفق ، والألسنة ما فتئت تدعو خالقها بإظهار الحق ، وتبرئة نديم . .

***

ونودي بانعقاد الجلسة مرة أخرى . . .

وصدر الحكم بالبراءة . . فغُصَّت القاعة بالتكبير والهتافات .

* * *

غير أن المحكمة أمرت بالتحفظ على ـ المتهم البريء ـ طبقاً لأوامر صادرة من محكمة عسكرية عليا ، وتقديمه لمحاكمة أخرى . . . سرية . . .

وسمح له بالاجتماع بأهله ساعة واحدة تحت رقابة مشددة . . .

ونظر نديم إلى خاله ، والفرح يملأ جنباته ، ولسان حاله يقول :

ـ الحمد لله . . والشكر له على امتنانه . . هذا اليوم الذي كنت أرقبه وأتمنّاه قبل أن أموت أو تمسني يد بالغدر . .

كان يؤلمني ويملؤني ندماً أن أظل طريد العدالة لجريمة توصمني وأهلي بالعار . . . وتظل تلاحق أسرتي وتلطخ سمعتها وتنتهي بها إلى الدمار . . . أما وقد حقق الله أمنيتي ، وشع نور الحق ، وأكرمتنا السماء بعدالتها . . . فإن انتصارنا لكبير ، وإن رأسنا لمرفوع . . . وسأمضي في تكملة رسالتي وأنا هادىء النفس مرتاح الضمير ، . . . وأهلاً بموت يشرفني وأنا على طريق النصر ، رافعاً راية الحرية والاستقلال . . .

* * *

وهمس راجح في أذن نديم بما لديه من أخبار . . . فبدت على وجهه كآبة وحزن ، وقال : ـ

ـ إن نصبوا المشانق لـواحد ، وإن أزهقـوا روح الشهيد « جابر بن ضاحي » ، فكلنا سيسير على الدرب . . .

* * *

وسيق إلى السجن السياسي الذي أعد له ولأمثاله من الخائنين . . . وهناك انتهى عهده بالحياة ، وانقطعت صلته عن العالم الخارجي ، فلم يعد يحس الا بظلم ، ولم يعد ير الا ظلـمـات ، ولم يسمع سـوى أنات وآهات . . .

واشتدّ الزبانية في القسوة عليه . . . فكوت جنوبه بالنار ، وقلمت أظافره ، وكاد أن يفقد بصره . . .

وزاد في آلامه أنه يلقى من العذاب أصنافه دون أن يكلمه أو يسمع منـه أحد سـوى أولئك الجـلادين الـذين يتلذّذون بتنكيله ، ويتلـهـون بإذلاله ، ويتسلّون بقتل إنسانيته . . .

وفي صبـاح يوم مـظلم . . . داهمت زنزانتـه مجمـوعـة من جنـود أشداء . . . أمسكوا به لووا ذراعيه . . . غمموا عينيه،كمموا فمه . . ودفع به جندي غليظ إلى الأمام فسقط على الأرض فدكته بندقيته على رأسه أفقدته الوعي . . . وصارت سنابك البنادق تدفعه وتلقيه . . . حتى وصل إلى مقر المحكمة العسكرية العليا . . .

وهناك . . فاجأ النور عينيه . . . فنظر إلى وجوه الحاضرين . . . فإذا هي صارمة يشف منها الحقد والكراهية . . .

* * *

أخـذ مجلسه . . . وجـو رهيب يملؤ الغرفـة المغلقـة . . وحـولها

وخارجها انتصبت قامات ضخمة للحراسة . . .

تكلم واحد من الثلاثة . . .

— أنا . . حكمت باشا ـ رئيس المحكمة العسكرية العليا ـ وهذا الذي عن يميني مدحت بك ـ المستشار السياسي القضائي ـ . . أما الثالث فهو مراد اوغلو احمد ـ الحاكم العسكري ـ

(ثم بدأ ينظر في أوراق كثيرة مبعثرة أمامه ـ وما لبث أن قال : ـ

— نديم عبد القوي الأبيض . . هل هذا اسمك ؟؟؟

— نعم . . .

— أنت متهم بالخيانة العظمى . . . وتنظيم الخلايا السرية . . . والتمرد على الأعتاب العالية . . . (وسكت قليلاً . .) . . لذا فقد حكمت المحكمة عليك . . .

— (كمن يفيق من ضربة قاضية . . . صاح نديم . .) كيف تريدون أن تحكموا عليّ دون أن تسمعوا مني . . . إن العدل يقضي بأن تمنحوا المتهم حق الدفاع عن نفسه . . . أرجو أن تعطوني فرصة لتوضيح القضية ، وشرح أبعادها ، وأهدافها . . .

(ثم أردفت بسرعة)

كما أطلب أن تكون محاكمتي علنية يحضرها . . .

— لا نريد أن نسمع ، ولا وقت لدينا نضيعه في كلامك وهرائك !! (واستبد بالحاكم العسكري الغضب . . . فانفجر قائلاً) . . » أين كنت طيلة هذه المدة . . . لدي هنا أفندم — تقرير من المخابرات العسكرية يقول بأنك قمت بزيارة دولة أجنبية معادية . . . ثم بعد ذلك لجأت إلى الأعراب والبوادي تطلب نجدتها وتعبئتها ضد حكم الوالي . . . و . . .

— اوقف مدحت بك اندفاع الحاكم العسكري بقوله : نعم .. نعم .. أفندم . . هذا يدل على أنه مجرم سياسي خطير ، يعرف كيف يضرب ويهرب . .

— (تنحنح رئيس المحكمة ، وقرأ في صوت عال) : لقد حكمت عليك المحكمة غيابياً . . . بالشنق حتى الموت .

— ولكني ـ الآن ـ ماثل أمامكم . . فلا يحق للمحكمة أن تصدر حكماً غيابياً بالشنق . . ألا يكفيكم تلك الأرواح التي ازهقتموها . . . والمشانق التي نصبتموها ... شهور وأيام طويلة وأنا بعيد عن الساحة ، ومنعزل عن أي نشاط ... فكيف أساق إلى الموت وأنا لم ارتكب عملاً يوصمني بالخيانة ؟؟؟ وكيف ترسلوني إلى المشنقة بدون أي دليل ضدي يثبت أني قمت بعمل تخريبي ؟؟؟

إنكم بذلك تثيرون الفتنة . . . .

لماذا لا تلجؤون إلى التفاهم والتفاوض في سلام . . .

إني احذر من مَغبَّة ذلك الحكم وعواقبه ... « وساد القاعة صمت رهيب » .

نظر كل من في المحكمة إلى الآخر . . . وصاح الرئيس في أحد الحراس .

— خذه إلى غرفة أخرى . . . رفعت الجلسة للتشاور . . .

وسيق مرة أخرى تحت دك البنادق إلى غرفة مجاورة . . .

وتكلم مدحت بك المستشار القضائي . . .

— يبدو أنه من الأوفق أن نصدر حكماً بالسجن المؤ بد و . . . .

— ولكن مع الأشغال الشاقة ـ (قاطع الحاكم العسكري . . .)

— (وتكلم رئيس المحكمة قائلاً) . . . انني أخشى من تفاقم الموقف على الصعيد الشعبي والقبلي والعشائري . . . سيما وإن تقرير

المخابرات ينذر بتفجير الفتيل . . . ونحن نستطيع أن نصدر حكماً غير الذي أصدرته المحكمة السابقة غيابياً . . .

إن هذا الشاب أصبح رمزاً للبطولة أمام هذا الموج الهائج من الرعاع . . . لذا فإني أوافقك الرأي يا حكمت باشا . . .

ـ أصبت الرأي . . أجاب مراد أوغلو ـ أصبت الرأي . .

***

وأعيد إلى الزنزانة مرة أخرى يلقي فيها ما يلقى . .

ثم أذن له بالاختلاط مع بعض السجناء بعد أن مرت شهور ثلاثة مريرة . . . وتعرف على بعض منهم فلم يجد فيهم من كان يعمل معه من السابق . . . غير أنه تلمس أخبار الجمعية ونشاطها ، واطمأن إلى أن هناك الكثير ممن يعملون بهمة ونشاط . . . وأن بوادر اتصالات خارجية مع دولة عظمى أجنبية أخذت تلوح في الأفق بعد أن عجزت قوى الوحدة العربية والقومية أن تتجمع لتؤلف صفاً واحداً . . . وقوة بذاتها . . .

وجاء من يبشره بقرب الفرج . . .

وعاودته الآمال عندما أحس وزملاؤه بتحول إنساني كبير في المعاملة، ونقل من السجن الانفرادي الى عنبر كبير مليء بالسجناء وسمح لهم بمزاولة ما يرغبون .

وفي صبيحة اليوم التاسع من شهر شعبان ١٣٣٤ هـ ـ ١٩١٦ م تفجرت الثورة العربية على الأتراك . . .

وانطلقت أولى طلقاتها من مكة المكرمة . . . ودوت أصداؤها في جميع أنحاء الجزيرة العربية . . .

وأغلق من خلفه باب الظلام . . . وخرج نديم ورفقاؤه إلى النور . .

* * *

إلا أن الأمور أخذت تتعاقب سريعاً . . . وما هي إلا فترة وجيزة حتى اتضحت الرؤية . . وبدأ يظهر - سراً وعلانية - تحولٌ في مسار الطريق ، وتأكد له أن الأهداف التي ضحى من أجلها الكثيرون أرواحهم ومستقبلهم . . والتي قامت من أجلها الثورة ، قد استغلت لتخدم أغراضاً شخصية وتحقق مطامع ذاتية ، ولم تستطع أن تحلق في أجواء الوطنية والوحدة العربية . . .

* * *

امتلأت روح نديم باليأس ، وتشبعت روحه بفقدان الأمل . . . وأخذ يعزي نفسه وآماله وطموحاته . . . « . . لقد قدر الله لهذه الأمة أن تنجح في إخراج الأجنبي من أرض الوطن ليقوم أهلها وأبناؤها من العرب بامتلاك الزمام . . » .

فاليوم . . « لا قبل لي بها . . . وليس لمثلي أن يتحمل معاناتها . . . فالطريق أمامهم طويل ، والليالي مليئة بالعويل ، والأيام حبالى . . . »

وقال فيما بينه وبين نفسه . . . « . . لا بد أن يجيء يوم تلفظ فيه الأمة العربية من لا يخلص لها ، ولا يعمل لمصلحتها . . ولا بد ليوم يقيض الله فيه ذلك المنقذ . . » .

* * *

وأدار ظهره . .

وقرر هجر المدينة وصَخَبها، ومعترك السياسة وضجيجها ، وصمم على العودة الى البادية . . . إلى مضارب ساهدة . . . حيث الهدوء والراحة . . . والأمان والاستقرار . . . والصدق والحرية . . .

وتلقاه الشيخ مفرح كمن يتلقى ابناً له عاد بعد غياب طويل . . .

ولاح على وجه سلمى مرح لم تستطع الأيام ولا الليالي رسمه على وجهها . .

* * *

واجتمع الشمل بعد أن ضمّ راجح ووجدان بيت السعادة والوئام . . . وانتقلت هند إلى مضارب فارس وسلمى ، ترعى الغنم ، وتحلب الناقة وتحتطب الحطب . . .

ومن حولها أطفالها يلعبون . . .

* * *

مكة المكرمة

محرم ١٤٠٤ هـ

كتب للمؤلف :

لاظل تحت الجبل - رواية اجتماعية - ١٣٩٩ هـ
أيام مبعثرة - مجموعة قصص قصيرة - ١٤٠٣ هـ

مطابع الصفا
ALSAFA
PRINTERS
مطابع الصفا مكة المكرمة ت : ٥٥٦٢٨١٠



تراب ... ودماء

.. « انها تصوير لشاعر شاب ولد في بيئة متناقضة من أب ينتمي في اصله الى الدم التركي. سليل الثراء والجاه والعز والسلطان... ومن أم عربية في اصلها وفصلها، عربية في تربيتها ونشأتها. فينعكس الصراع الذي كان قائماً في تلك الحقبة من الزمن، والمتناقضات التي كانت سائدة تملأ النفوس وتهز الأحاسيس.. تنعكس على نفسه.. فينشأ صراع داخله... الى من ينتمي ؟؟ أين يجد نفسه ؟؟...»

من كلمة المؤلف

«... من هنا كان كاتب الرواية - السيد فؤاد عنقاوي - قد جسد له آباؤه من كبار الاسنان هذا الواقع، فاذا هو يشعر به، يكتبه.. ومن هنا أعد هذه الرواية تاريخاً للبلد كله، واذا كانت قد عبّرت عن مشاعر البطل وكُرُوبه.. فإنها ليست كروب الواحد بطلا، وانما هي كروب ذلك الواقع...»

من مقدمة الاستاذ
محمد حسين زيدان

« نبذة من حياة المؤلف .. نشرت في مجموعة قصصه القصيرة - « أيام مبعثرة » من مطبوعات تهامة » ..

مطابع الصفا بمكة - ت ٥٥٦٢٨١٠